

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

قضية أبو الفتوح الشرقاوي

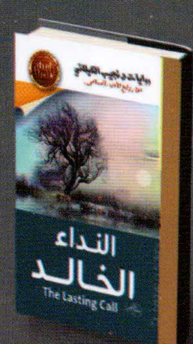
Abul Fotouh
Al Sharqawy's
Case

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا







قضية
أبو الفتوح الشرقاوى

[روايــة]

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٢٧٩
الترقيم الدولى:
978-977-255-425-6



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

العاشقة

آلاف المحاذير كانت تنصبُّ فى أذنيه كل يوم «يا طفلى الصغير لا تقترب من البحر . . البحر ملىء بالجنيات والشياطين . . شوقى حبيبى . . لا تمش فى الطرق المهجورة فهناك من يختطفون الأطفال . . لا تصعد فوق الأشجار وإلا قذفت بك أيدى العفاريت فتسقط مهشمًا . وتتكسر عظامك . . » كل هذه النصائح كانت تلقى عليه مع قصار السور التى يحفظها فى كتاب القرية، ومع وجبات الطعام اليومية، وعند الاستيقاظ من النوم مبكرًا فى الصباح، حتى أصبح شوقى ذو الستة أعوام من العمر يحفظها عن ظهر قلب . . ويرددها دائمًا مع أقرانه . . لقد آمن بها أعمق الإيمان، فلم يعد هناك أدنى شك فيها . . ولا يدرى شوقى كيف نسى هذه النصائح كلها . عندما سمع أن «بحر العباسى» قد شهد حادثة مروعة لم يفكر أن يتردد، أخذ صديقه عبد القادر وجرى بسرعة صوب الترعة . . واستمر فى جريه منطلقًا إلى المكان الذى حددوه والذى يبعد عن القرية أكثر قليلا من الميل . . لم يخف من الترعة الطافحة بالماء وجنيات البحر، ولم تساوره الوساوس وهو ينطلق مع عبد

القادر إلى حقول الذرة الخضراء على يساره . . لقد زعم البعض أن هناك سيارة سقطت فى «البحر العباسى»، وأن القتلى تطفو جثتهم على سطح الماء إلى جوار الشاطئ . . وأن من بين الضحايا نساء جميلات . . وأطفال زرق العيون . . ومشغولات ذهبية . . وملابس متناثرة هنا وهناك . . كان شوقى يلهث، والعرق يتصبب على جبينه . . فى لحظة نسى كل وصايا وتعليمات أمه . . إنه يريد أن يرى السيارة تلك التى لا تأتى فى القرية إلا نادرًا جدًا . . ربما لم يرها أكثر من مرتين . . وفى كل مرة كانت تمر كالريح مخلفة وراءها عاصفة من الغبار الكثيف . . لم يركبها قط . . والنساء اللاتى يتحدثون عنهن لم يكن يراهن إلا فى الأحلام بصورة غامضة غريبة . . فما أعجب أن يراهن موتى لا حول لهن ولا قوة . . ووصل شوقى وعبد القادر إلى البحر العباسى بعد لأى ومشقة بالغة . . توقفا . . كان صدراهما يعلوان ويهبطان، نظرا حولهما لم يجد شيئًا . . رآهما أحد الفلاحين . .

- «ما الذى أتى بكما؟؟».

- «الحادثة . . السيارة . .».

أشار بيده جهة اليمين، فاستأنفا الجرى شرقًا بحذاء شاطئ «البحر العباسى» . . لم يلتفتا إلى المراكب الشراعية التى تحمل الجرار والملح ومختلف البضائع، وهى تتهادى آمنة مطمئنة على سطح الماء، وأشرعتها البيضاء تخفق فى مهابة . . وطال الطريق، حتى أجهدهما الجرى المتصل، وكادا أن يسقطا إعياءً . . لكن نداءً

داخليًا، وقوة سحرية تدفع فى جسديهما النشاط والإصرار . . يقول عبد القادر «أشعر بظمأ شديد، لم لا نتوقف ونشرب من البحر؟» أصر شوقى على منعه مخافة أن تمتد إليه يد «الجنية» وتسحبه إلى الأعماق، سرت قشعريرة الخوف فى جسد عبد القادر وزاد من معدل خطواته . . صورة السيارة الغريقة، والجثث المتناثرة . . والجواهر . . ، والأموال المتناثرة ترسم لوحة غريبة بديعة فى ذهن الصغير شوقى . . لسوف يعود بشىء من هذه الغنيمة إلى أمه . . وسيأتى الأطفال من حاراتهم ليروا ما لم يروه فى حياتهم قط . . وقد يجد فستانًا حريريًا لأخته الصغرى «فريدة» تلك التى تمزق ثيابها، والبرد يرعش شفتيها ويديها .

وأخيرًا فى مكان مقفر وجد سيارة «ملاكى» زرقاء، نصفها فى الماء والطين، والنصف الآخر الخلفى مرتكزًا على ضفة النهر . . وإلى جوارها وقف رجلان من أهل المدينة يلبسان الملابس الإفرنجية والطربوش . . وكانا يتحدثان فى عمق وهدوء . . قال أحدهما : «لقد سرق اللصوص كاوتشوك العجلات الأربع» ورد الثانى وهو يتفحص السيارة من الداخل . . «وسرقوا بعض قطع الغيار . . » ثم فتح حقيبة السيارة الخلفية واستطرد «واستولوا على الآلات والعجلة الاحتياطية . . وبعض الأشياء الأخرى» .

وعلق الأول : «أمر سخيف . . إن هذه الخسائر سوف تكلفنا أكثر من خمسين جنيهًا . . وهذا مبلغ كبير . . إن ضعفه يمكننا من شراء سيارة أخرى مستعملة ولو أن السيارات ارتفع ثمنها منذ بدأ

هتلر الحرب منذ شهور. . عموماً الحمد لله. . فهى خسائر محدودة. . ».

وانصرف الرجلان بعد أن اتفقا على أن يرسلا ميكانيكيًا لإصلاحها، وركبا سيارة أخرى كانت تقف بعيداً عن موقع الحادث. .

اقترب شوقى- وخلفه صديقه عبد القادر من السيارة، ملأ عينيه بمقاعدها ومنظرها العام من الداخل ثم من الخارج، لمسها لأول مرة بيديه، وضع خده على زجاجها ثم على هيكلها. . تحسس الفوانيس التى كانت تضىء. . فتح باب السيارة ثم أغلقه. . لم يحكم الإغلاق. . قال عبد القادر:

- «ابتعد عنها. . إنها مسكونة بالعفاريت. . ».

- «لا أرى شيئًا».

- «العفاريت لا يراها أحد. . ».

تلفت شوقى حواليه وقال فى خيبة أمل:

- «لا أطفال. . ولا نساء. . أين الذهب والحرير؟؟ هل سبقنا إليها أحد؟؟».

ها هو «أبو الفتوح الشرقاوى» بائع الخضراوات والفواكه فى القرية يهرول نحوهما. . فى يده خيرزانته العتيقة ساحبًا حماره المعروف.

- «ابعد يا ولد أنت وهو».

تنحيا جانبًا، شمل أبو الفتوح ذو الخمسة والعشرين ربيعًا المكان بنظراته المتفحصة.. نظرات التاجر الخبير، وقاس بنظراته أيضًا شاطئ البحر، وتابع قليلا السيارة التى ركبها الرجلان القادمان من المدينة.. بدا على وجهه شىء من الضيق هو الآخر.. لم يجد شيئًا ذا بال يدعو لبقائه.. لكنه عاد وحاول أن يخلع أحد المقاعد ليأخذه معه، مجرد غنيمة يعود بها لزوجه وأولاده.. لكن المقعد استعصى عليه، سب، ولعن، وبصق، ثم استدار، ووثب فوق ظهر حماره. واتخذ طريق العودة:

- «خذنا معك يا عم أبو الفتوح..».

- «امش مشت عليكما بطنكما.. ما الذى أتى بكما إلى هنا؟ عيال بلا تربية..».

وهز رجليه، وصاح بحماره «حا.. حا.. يا ملعون... مشوار بدون معنى..».

حاول شوقى وعبد القادر فى رحلة العودة أن يجريا خلف حمار أبو الفتوح، كانا منهكين ويخافان أن يضلا الطريق، لذلك استمرا فى الجرى حتى بلغا موضع خروج الترعة من «البحر العباسى» ثم أبطآ المسير.. حينًا يغرفان من ماء الترعة ويشربان.. وحينًا آخر يخلعان عودًا من الذرة الخضراء، ويقشران الكوز، ثم يأكلانه غضًا ليسدا نوبة الجوع التى داهمتهما.. وصاحب الحقل

يجرى وراءهما، ويقذفهما بالحصى، ويكيل السباب لهما ولآبائهما . . ثم جلسا يستريحان بعض الوقت تحت شجرة من التوت . . تذكر شوقى أمه والوصايا الدائمة . . البحر . . والطرق المهجورة . . والجنيات والعفاريت . . وسارقى الأطفال . . ويستأنف المسير مرة أخرى حتى لا تطول غيبته . . قال لعبد القادر: «لا تخبر أحدًا بما جرى وإلا ضربتنى أمى».

عندما دخلا القرية وجدا جمعًا غفيرًا من الناس يتزاحمون، وفى وسط الحشد الكبير بصرا بأبى الفتوح الشرقاوى وحماره . . كان أبو الفتوح يقول:

- «من واقع سجلات النيابة . . القصة هكذا . . امرأة البك الكبير أخذت عشيقها، وهربت معه . . وصلا إلى منطقة مقطوعة على البحر العباسى . . جلسا تحت مظلة القمر يشربان الخمر . . ويمارسان الرذيلة . . كانت بيضاء جميلة مثل الأميرات الفاتنات . . عبثا ما شاء لهما العبث . . نزلا النهر ليستحما . .

﴿إنَّ ربَّكَ لَبالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] صدق الله العظيم . . سحبتها جنية البحر إلى الأعماق . . هرب العشيق، ووقف على الشاطئ يلطم خديه . . وأخيرًا طفت جثتها على السطح . . نادى العاشق: «البر يا طالب الدفن» كما نقول نحن لكل غريق . . وجد جثتها تقبل صوب الشاطئ . . صرخ . . تجمع الناس . . نعم فى الليل . . بل بعد منتصف الليل . . لا أدرى، هذا ما حدث، أقبل

الناس من كل مكان. . كيف؟؟ حكمة ربنا يا مؤمن. . هل تنكرون أن الله قادر على كل شيء. . أمر يُوسف له. . استولى اللصوص على المجوهرات والملابس. . وساقوا العشيق عاريًا إلى دوار العمدة. . ومنه إلى المركز.

انقلبت الدنيا رأسًا على عقب. . بوليس. . نيابة. . خيول. . عربات إسعاف. . الظاهر أنهم باشوات . . هم ملوك الفضائح. . وجرت جموع الناس إلى الطريق المؤدى إلى «البحر العباسى» وقف شوقى مذهولا وهو يستمع إلى القصة. . إنه لم ير شيئًا من هذا كله. . لكن من يدرى؟ لعل أبو الفتوح يعرف أكثر. . اقترب شوقى منه.

- «يا عم أبو الفتوح. . أنا لم أر شيئًا مما تقول؟؟».

- «لأنك عبيط. . ولم تزل صغيرًا. . ».

- «لكن يا عم أبو الفتوح الـ. . ».

قاطعه أبو الفتوح قائلا وهو يركب حماره:

- «اذهب معهم مرة أخرى وسترى. . ».

- جرى شوقى مع الحشد الكبير الذى يتدفق صوب الجنوب. .

لشد ما يشعر بالإرهاق. . لم يتغير المشهد عن سابقه السيارة بلا إطارات. . تقف معزولة جامدة لا حس ولا حركة. . كل ما فى الأمر أن أحد الخفراء جلس على مقربة منها لحراستها، ومنع الناس

من العبث بها. . انهمرت أسئلة المحتشدين على «الخفير» . . سألوه عن العاشقة والعشيق، وعن. . وعن. . وهو يستمع إليهم دون اكتراث، ويلف التبغ فى ورقة رقيقة، ويتمتم:

- «أنا لا أحب إلا السجائر اللف. . ».

- «الحادثة. . ».

- «أى حادثة يا بهائم؟».

احتج البعض، لكن الآخرين زجروهم لكى يعرفوا الحقيقة من فم الخفير نفسه.

قال الخفير ببرود:

«حادث سرقة مقيد ضد مجهول».

- «والمرأة؟؟».

- «الله وحده أعلم».

- «هكذا الحكومة لا تريد أن تقدم المعلومات الصحيحة. . ».

قال الخفير:

- «مهمتى فقط هى حراسة «العين المسروقة» أما غير ذلك فلا صلة لى به. . ».

- «لكن الناس يقولون. .

صاح بأعلى صوته، وهز البندقية العتيقة التى فى يده:

- «اذهبوا وإلا قبضت عليكم بتهمة إزعاج السلطات، وتعطيل الحكومة عن أداء واجباتها. . يا بلد لا تحترم القانون. . يا غجر. . ».

لم يستطع شوقى أن يتحرك، فقد شعر بإعياء شديد، كان فى حاجة ماسة إلى حمار يحمله إلى داره. . ليته لم يأت للمرة الثانية. . كان يمشى مع عبد القادر ببطء، وقد تسلخت أقدامهما الحافية، لكنه لحسن الحظ رأى أباه قادمًا من بعيد ممتطيًا حماره. .

قرصه أبوه من أذنه، ثم حمله من تحت إبطه وأركبه الحمار، وأتبعه بصديقه عبد القادر وهو يزمجر، ويعيد على سمع شوقى وصايا أمه التى كانت تحفظها له مع قصار السور فى القرآن الكريم. .

عند العشاء سمع أمه تقول لأبيه:

- «يا بو شوقى. . يقولون إن الحكومة تسترت على الفضيحة. . إنهم من كبار الناس. . يا للعار! امرأة بنت ناس. . من كبار القوم وتفعل ذلك؟؟ الناس رأوها ميتة بين أوراق الذرة الخضراء يقولون إنها جميلة. . فتنة. . لقد ستروها بالجلابيب والخيش حتى. . ».

قال شوقى:

- «لم أر شيئًا يا أمى».

ردت أمه :

- «لأنك أعمى . . ثم ما شأنك أنت بهذه الأشياء؟» .

ثم التفتت إلى زوجها :

- «امرأة العمدة تقول إن العشيقة الفاسدة من عائلة الرهطاوى باشا . . وإن . .» .

قال أبو شوقى فى ملل :

- «عليَّ أن أستيقظ قبل الفجر . . لا بد من رى الذرة، وبذر البرسيم . .» .

ثقلت رأس شوقى، ألقى برأسه على الوسادة الصغيرة، وتمدد على الحصير المتآكلة . . تراوده فى منامه نساء جميلات . . وحرير . . ومجوهرات . . وضحكات خليعة . . وسهام نارية تتساقط من السماء لتصيب العصاة . . والجثة النائمة تحت أوراق الذرة تبتسم وتقول له : «تعال . . تعال يا شوقى . . أنت لم ترنى . . لكنى رأيتك . . تعال إلى جوارى . .» .

ومدت يدها . .

وفزع شوقى من نومه، وأخذ يصرخ ويستغيث، هرولت أمه تحوقل وتبسمل وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم :

- «كانت ستقتلنى . .» .

- «من يا حبيبى؟ . .» .

- «المرأة الجميلة . . الجثة . . » .

- «الموتى لا يقتلون أحدًا يا ولدى . . » .

- «بل يقتلون . . » .

ربتت أمه على رأسه فى حنان قائلة :

- «نم باطمئنان . . إنك فى حضن أمك . . وأنت تقول إنك لم تر شيئًا . . » .

- «لكنهم يقولون إنهم رأوا . . » .

ثم غاص فى أعماق النوم . .

●●●

الجريمة

اهتزت القرية، واستبدت الحيرة بأهلها، وأخذوا يضربون كفًا بكف، ويبعثرون التساؤلات هنا وهناك، وساد الارتباك فى كل مكان، حتى العمدة نفسه وقع فى حيص بيص، وعجز عن توضيح أى شىء، أو الاجابة عن أى استفسار.

إن القبض على «أبو الفتوح الشرقاوى»، فتح الباب واسعًا أمام العديد من الاحتمالات والتأويلات، لكن المؤكد أن ليس هناك من يعرف الحقيقة، اللهم إلا إذا كان أبو الفتوح الشرقاوى الذى أكد منذ البداية أنه رأى الجثة وسط أعواد الذرة الخضراء، وتأكد من وساقها والمجوهرات التى تحلى جيدها وأذنيها، والملابس الحريرية ذات الألوان البهيجة التى تدثرت بها الميتة، كما أفاض فى الشرح عن جمالها المذهل وعينيها الواسعتين المكحولتين وشعرها الحريرى الناعم الطويل، وغير ذلك من الصفات التى ذكرها لأهل القرية بعد عودته من البحر العباسى حيث الغريقة والسيارة التى نزعت إطاراتها؟

كان أبو الفتوح مذهولا والخفراء يجرونه مربوطًا بالحبال وقد ركب ضابط واثنان من الشرطة على الخيول وفى أيديهم السياط . .

والمتفرجون يجرون هنا وهناك ليفسحوا الطريق أمام الخيول، والكلاب تنبح، والثيران تخور، والحمير تنهق، وأبو الفتوح يمضى كالنائم مغنطيسيًا، ولا يدرى ماذا جرى فى الدنيا، «يا ناس أنا برىء. . لم أرتكب إثمًا. . لم أر شيئًا. . كله كذب فى كذب. . أقسم بالطلاق أننى لم أشاهد سوى السيارة والرجلين لابسى الطرابيش. . هذا كل ما فى الأمر»، لكن الجمهور لا يصدق مقولته، لقد أخبرهم قبل ذلك عن الجثة وكثير من التفاصيل، وهو يحاول الإنكار الآن حتى يفلت من قبضة الحكومة. . لقد روى تفاصيل القصة على رؤوس الأشهاد، لكن الولد شوقى قال لأمه: «والله ما كان فيه شىء غير السيارة والأفندية».

نهرته أمه قائلة: «حذار أن تتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى يا شوقى» لكنه انصرف إلى الزحام تاركًا أمه لتكمل نصائحها. .

انهار أبو الفتوح وبكى، ربت العمدة على كتفه وقال: «لا تجزع يا أبو الفتوح. . قل الحقيقة عندئذ تحترمك الحكومة، وتعيدك إلى أولادك معززًا مكرمًا. . يا ابنى شهادة الزور كبيرة من الكبائر. .».

أخذ أبو الفتوح يجفف دموعه بكم جلبابه المتسخ فيما كانت امرأته تصرخ بأعلى صوتها. . والنسوة يهدئن من روعها. .

فى المركز سأله ضابط المباحث:

- «هل رأيت الجثة؟؟ وهل يمكن أن تعطينا وصفًا تفصيليًا لها؟؟».

لطم أبو الفتوح على وجهه كثكلى وقال :

- «أى جثة يا بك؟؟؟ كله كلام فارغ . . ».

ابتسم الضابط ورمقه بنظرة متوعدة :

- هنا بالذات لا يستطيع أحد أن ينكر . نحن ننطق الصخر . . هل فهمت؟؟ وإنكارك يعنى أنك متواطئ . . ».

كل ما يتذكره أبو الفتوح أنه فى لحظة من اللحظات لم يعد يستطيع التعرف على الجهات الأربع الأصلية ، كما عجز عن معرفة بعض الأشخاص الذين سبقت له معرفتهم ، كان الضرب قاسيًا حتى أفقده القدرة على التركيز بل مجرد التفكير ، تداخلت الرؤى فى مخيلته ، تشابكت الأحداث ، لم يعد هناك فرق يذكر بين الوهم والحقيقة ، والصدق والكذب ، والحياة والموت ، لقد عاش سنوات طويلة لا هم له إلا البيع والشراء فى مجال الفواكه والخضراوات ، وأحيانًا أعواد قصب السكر الحلوة التى يمتصها الناس ويصنعون منها عصير القصب ، ويكسب فى الشهر أكثر مما يكسبه موظف الحكومة ، إن زوجه وحماره وطفليه لا يكلفانه إلا القليل ، وعاش طول عمره يضحك ويمزح ويؤلف الحكايات ، ويحور القصص ، المهم أن يثير الناس ويضحكهم ، الناس المهمومون فى أمس الحاجة إلى الترفيه ، وهو يحاول دائمًا أن ينتزعهم من الواقع الأليم ، ويهيم بهم فى عالم سحرى ، هو كالواقع أو شبيه بالواقع ، ذلك لأن الناس يريدون ذلك ، ويهرعون إليه ، ويجدون المتعة والسعادة فى الذوبان فيه . .

أعادوه إلى ضابط المباحث زائغ النظرات . .

قال الضابط :

- «هل رأيت الجثة يا أبو الفتوح؟؟» .

- «نعم . .» .

- «وشكلها؟؟» .

أغمض عينيه ، وترك لنفسه العنان فى الخيال :

- «بنت باشاوات يا سعادة البك» .

- «ألم تلحظ بها إصابات؟ . .» .

- «دعنى أتذكر . .» .

- «تذكر كيف شئت . .» .

وضع أبو الفتوح إصبعى السبابة والوسطى من يده اليسرى على جانب رأسه . . حاول أن يتذكر . . ارتسمت آفاق صورة جثة فاتنة كتلك التى حلم بها طويلا : على شفتها ظلال ابتسامة برغم أنها ميتة ، وردية الخدين على النقيض تمامًا مما يسود وجوه الموتى من الشحوب . . مكحولة العينين، يا إلهى كان أنفها جميلا . . سبحان الخلاق العظيم .

- «يا بك . .» .

- «تكلم يا أبو الفتوح» .

- «سبحان الله . . تصور لم يستطع أحد أن يكشف عن عورتها . . كانت ترتدى سروالا أمسكت به بيدين متيبستين . . يا إله العرش . . حاولوا زحزحة يديها . . الخبثاء . . لكنهم فشلوا . . ».

دق الضابط بيده على المنضدة وقال :

- «إذن كان هناك آخرون معك شاهدوا الجثة؟؟».

ارتج عقل «أبو الفتوح»، كيف أوقع نفسه فى هذا المأزق، ماذا جرى له؟؟ أنكر فى البداية أنه رأى أحدًا آخر، لكن كلامه السابق أدانه، ولم يكن أمامه سوى الإقرار بأن آخرين كانوا معه عند معاينة الجثة . . ويكاد يغمى عليه من الحيرة والهوان هذه المرة حينما سأله الضابط :

- «اذكر أسماءهم».

- «كانوا غرباء يا بك».

- «أسماؤهم ما هى؟؟».

- «وكيف أعرف؟؟».

- «صفهم . . ».

- «واحد أبيض وواحد أسود، و . . ».

قاطعه الضابط بعنف :

- «نعم . . وواحد قصير، وآخر طويل . . ».

- «بالضبط يا بك، وواحد أعور وإلى جواره شخص أعمى . . نعم أعمى . . ».

ضحك الضابط عاليًا:

- «أعمى يا أبو الفتوح؟؟».

- «ولماذا أكذب يا بك؟».

هز الضابط رأسه قائلا:

- «ومن القاتل؟؟».

- «رأيت الجثة ولم أر الجريمة».

وجد أبو الفتوح نفسه يغوص ويغوص فى بئر أسود لا قرار له، يبحث فى رأسه عن صفات للضحية والقتلة وعشرات الأسئلة التى تطرأ فى كل موقف، وضابط المباحث لا يكل ولا يمل ولا ييأس، ويشعل السيجارة تلو السيجارة، ويرشف فناجيل القهوة، ويأكل الساندوتشات الشهية، ويلوك قطع الشيكولاته . . لم يعد لدى أبو الفتوح طاقة مختزنة لمزيد من الاحتمال، لذا فكر فى الانتحار، كأن يشنق نفسه، أو يقذف بها من فوق سطح المركز، أو يضرب نفسه بسكين . . لكنه فى الواقع كان أضعف من أن يقدم على ذلك، وهو يعرف نفسه جيدًا، يحلم كثيرًا، ويعمل قليلا، فكر ألف مرة قبل ذلك أن يغتال العمدة، أو يدس السم لشيخ الخفراء، أو يسرق البنك فى مدينة طنطا، أو يتسلل ليلا إلى خزانة البريد فى «سنباط»، أو يتسلق السور العلوى لبيت «الصراف» فى القرية

ويستولى على إيراده . . بل الأعجب من ذلك أن أبو الفتوح فكر ذات مرة فى السفر إلى القاهرة، ودخول قصر الملك خفية عن طريق «الحديقة»، لكنه وجد أن مقابلة النحاس باشا زعيم حزب الوفد أيسر، لم يكن يحب الوفد، ويكره أحمد ماهر باشا وحزب السعديين، لكنه بالنسبة للإخوان المسلمين رأى أنهم أسمى وأنقى من أن يلوث مجالسهم بأنفاس التبغ والحشيش التى ينفثها من آن لآخر، كان يخاف أن يشموا رائحته . . وهو يهابهم ويحترمهم، لأنهم على حد تعبيره «من أهل الله» . .

وعندما يتفضل الله عليه بالتوبة، فسوف يترك الجميع ويذهب إليهم نقيًا نظيفًا . .

اهتدى ضابط المركز إلى وسيلة معروفة، وهى عرض صور المشبوهين من اللصوص والقتلة وهاتكى الأعراض وغيرهم، لعل أبو الفتوح يستطيع أن يتعرف على واحد منهم، وتكون البداية . .

نظر أبو الفتوح إلى الصور فى إمعان، كان يستنطق كل صورة بينه وبين نفسه، يقرأ الملامح، ويقيس رد الفعل لديه، ثم يشير إلى أن هذا أو ذاك كان واحدًا ممن حضروا رؤية الجثة، وضحك أبو الفتوح على الرغم منه حينما وقعت عينه على صورة لص من قريته يعرفه تمام المعرفة، وعلق وهو يضحك :

– «لعنة الله عليك يا بسيونى . . هل أصبحت من المهمين لدى الحكومة؟؟ هذا شرف لم تكن تحلم به . . ».

وانتهزها الضابط فرصة وقال:

- «هل كان بسيونى المغازى معكم؟».

- «طبعًا يا بك.. له فى كل خرابة عفريت..».

- «بسيونى؟؟».

- «نعم يا بك.. رأيته يتفحص الجثة بعينى هاتين اللتين سيأكلهما الدود..».

- «مقرف..».

وأصدر الضابط أوامر بالقبض على بسيونى وعلى كل من ذكرهم أبو الفتوح، وهمَّ بأن يغادر مكتبه، لكن أبو الفتوح رفع يده إلى أعلى وقال:

- «يا بك.. كان معنا طفل اسمه شوقى.. شوقى عبد الفتاح.. من بلدنا يا بك.. ولد قليل الأدب..».

قال الضابط:

- «أحضروه هو الآخر مع أبيه..».

ووثب إلى ذهن أبو الفتوح سؤال أخذ يلح عليه، هل كانت الجثة لقتيلة أو غريقة؟! إنه لا يتذكر إن كان بالجثة إصابات أم لا، لكنه يريد أن يعرف، لهذا توقف عن السير وهو فى طريقه إلى «الحجز» ونادى الضابط بأعلى صوته كى يوضح له هذه النقطة المهمة، فأفهمه الضابط أنه لا يمكن معرفة ذلك إلا بعد تشريح الجثة

بمعرفة الطبيب الشرعى.

عندئذ قال أبو الفتوح:

- «ولماذا لم يتم التشريح؟؟».

قال الضابط وهو يرميه بنظرات متشككة متوعدة:

- «لأننا لم نعثر على الجثة بعد».

- «كيف؟؟ أنتم الحكومة..».

- «أنت الوحيد الذى اعترف بأنه رآها..».

- «ولماذا تهتمون بجثة لم تروها؟».

- «ليس هذا من شأنك..».

سمحوا له فى اليوم التالى بأن يقابل امرأته وطفليه، ويأخذ منهم الطعام، كان جائعًا منهكًا محزونًا، أخذ يأكل الدجاجة والأرز المعمر والدموع تنهمر من عينيه، وفى الوقت نفسه كان يتكلم، تتدفق منه العبارات المتلاحقة دون رابط، أكد لها أنه لم ير جثة.. كان محض خيال، لكنه تبين أن الحكومة مصرة على أن هناك جثة، وهم متأكدون من ذلك، ولهذا اعترف بأنه شاهد الجثة، فهل يعقل أن ترى الحكومة شيئًا مؤكدًا ثم ينكر أنه رآه؟؟ ومن هو حتى يكذب الحكومة؟؟ سيكون عندئذ قليل الأدب، ولا يعرف واجب الطاعة «لأولى الأمر».

- «ولكنك أنت نفسك لم تر شيئًا.. كنت تمزح..».

قال أبو الفتوح لزوجه دون اكتراث:

- «لا يهم».

- «سيعدمونك أو يسجنونك».

- «المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين يا قطيفة».

حينما جذبه العسكرى من كمه وأبعده عن أسرته، كان يلتفت إلى الوراء والعسكرى يدفعه أمامه، لأول مرة يشعر أن «قطيفة» وطفليها قطعة منه، وأنهم الآن يقتطعون قلبه أو كبده من بين أحشائه.. لا.. إنهم يسحبون روحه.. وهل يستطيع أن يعيش بلا روح؟؟

ألقى بجثته فى ركن من أركان غرفة الحجز، جفف دموعه، وأخذ يستغفر الله ويدعوه من أعماقه أن يفرج كربته، ويأخذ بيده من هذه السقطة الرهيبة التى لا أول لها ولا آخر، وعاد مرة أخرى يفكر فى أمر «الجثة» التى اختفت.. من أخفاها؟؟ ولماذا؟ وإلى أين ذهبت؟!

وغمغم أبو الفتوح فى إصرار:

- «ما لى أنا وللجثة؟؟ هل وظفتنى الحكومة حارسًا على المحامين.. سوف أعلن ذلك صراحة فى جلسة الغد.. الله الله يا حكومة!!».

ooo

الاتهام

كانت مأساة رهيبة، ذلك أن المشتبه فى أمرهم جاءوا وأغلبهم لا يعرف أبو الفتوح، ولم يدروا شيئًا عن الجثة، واحد فقط تعرف عليه أبو الفتوح وهو مواطنه فى القرية «بسيونى المغازى» الذى أنكر بكل ثقة وتأكيد أنه لم ير الجثة، ولم يلتق مطلقًا مع أبو الفتوح عندها، بل إنه أثبت بما لا يدع مجالا للشك بأنه قضى ثلاثة أيام فى بلدة «تفهنْا العزب» عند أخته المتزوجة هناك ولم يعد من سفره إلا قبل استدعائه بساعة واحدة، ثم إنه متخصص فى سرقة المواشى والأغنام والطيور، ولا شأن له بشىء آخر فى عالم اللصوصية والجريمة بصفة عامة، وبدا واضحًا أن بسيونى لا يكذب، وأن المشتبه فى أمرهم الذين تعرف عليهم أبو الفتوح من الصور لم يستطع ضابط المباحث أن يجد قرائن قوية على تورطهم، عندئذ رسخ فى ذهن جماعة المباحث أن هناك جريمة قتل، وأن أبو الفتوح متورط فيها لا شك، ولهذا السبب فإنه يحاور ويداور، ويوسع دائرة الشبهات، ويربك التحقيق حتى تضيع معالم الجريمة ويفلت

من العقاب، خاصة أنهم لم يعثروا للجثة على أثر، ولم يجدوا أى شيء من مخلفاتها يشى بوجودها.

لكن الأوامر العليا تؤكد اختفاء سيدة من أسرة عريقة اسمها «عنايات هانم البجيرى» كانوا قد زوجوها منذ ثلاثة أعوام من رجل فى الستين من عمره، على الرغم من أنها لم تتجاوز العشرين وكان اختفاؤها منذ أسبوع، وعجزت الشرطة -بعد إبلاغ أهلها لهم- عن الاهتداء إليها حية أو ميتة، ودلت التحريات على أنها كانت على خلاف شديد مع زوجها، وهو لواء شرطة على التقاعد، ومع أهلها أيضًا، وأجريت التحريات حولها علاقاتها فى أندية طنطا، ومجتمعاتها الراقية، ومع الرجال والنساء وزميلات الدراسة وكل من كانوا على علاقة بها فلم يتوصلوا إلى نتيجة تضيء لهم طريق البحث عنها، وأمام لغز اختفاء «عنايات هانم البجيرى» زوجة الشخصية البارزة، لم يكن هناك مناص من استمرار البحث، وكشف الغموض؛ وحينما انتشرت الشائعات حول السيارة المسروقة والجثة، تشبثت الشرطة بهذه القصة المثيرة، وأخذت تحاول فك طلاسمها، فالأوامر صريحة ومشددة بضرورة العثور على المرأة الضائعة ذات الوضع الاجتماعى المتميز.

واستطاعت الشرطة أن تصل إلى صاحب السيارة المسروقة، فأخضعته لساعات طويلة من التحقيق حيث تبين أنه لا يعرف شيئًا عن عنايات هانم، ولا عن اللصوص الذين سرقوا سيارته وأتلفوها، كما جرى تمشيط شامل لكل الذين عُرفوا بسرقة

السيارات، بل لكل من يعملون فى الورش والتجارة المتصلة بالسيارات وقطع الغيار، وكان العجز فى الوصول إلى لصوص السيارة مدعاة لمزيد من الشك والحيرة.

قال ضابط المباحث لأبو الفتوح الشرقاوى:

- «ربما لو أرشدتنا عن مكان الجثة التى رأيتها نطلق سراحك، وتذهب إلى أولادك..».

ركع أبو الفتوح على ركبتيه وهتف:

- أنا فى عرضك يا بك..».

- «وبدون كفالة يا أبو الفتوح».

- «مرنى.. وأنا عبدك..».

- «الجثة..».

تلفت أبو الفتوح حواليه زائغ النظرات، مكدور الذهن واستغاث بدموعه:

- «الرحمة يا بك».

- «أنت الذى ترحم نفسك».

- «أنا؟؟ كيف؟؟ ما بيدى شىء.. أنا تافه.. خائب.. سيئ الحظ..».

رمقه الضابط بنظرات نارية:

- «لـن تخـرج إلا إذا أرشدتنا عن الجثة، وإلا فأنت متواطئ أو قاتل. .».

- «قاتل؟؟ أنا؟؟

- «هذا إذا لم ترشدنا عن الجثة. .».

لم يعد هناك جدوى من الضراعة والأيمان المغلظة، ولا مجال للتراجع عن الاعتراف بأنه شاهد الجثة، لكن الله وحده يعلم أنه برىء. . ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه، هكذا أيقن أبو الفتوح، وقاده ذلك الاعتقاد إلى احتمال العثور على الجثة لو بحثوا عنها، فما دامت هناك جثة كما يقولون فلا بد أنها ستكون فى مكان ما، فأين يا ترى ذلك المكان؟؟ وشرح أبو الفتوح وجهة نظره تلك لضابط المباحث الذى افتر ثغره عن ابتسامة سعيدة ماكرة:

وقال أبو الفتوح:

- «فلنبحث عن الجثة».

- «هـذا كلام صـائب يا أبو الفتوح، لكن أين سنبحث عنها يا رجل يا طيب؟؟».

تفكر أبو الفتوح مليًا ثم قال:

- «فى المنطقة المحيطة بالسيارة المسروقة أو فى المقابر».

- «وأين نبدأ يا صديقى؟؟».

- «فى . . فى . . فى أى مكان» .

رنت صفعة قوية على وجه أبو الفتوح الذى وضع يده مكان الصفعة وهتف على الفور :

- «فى المزارع يا بك . . » .

- «هيا بنا . . » .

وأركبه الضابط مغلل اليدين بالحديد إلى جواره فى سيارة الشرطة، وعندما وصل أبو الفتوح إلى الدوار، تواكبت أفواج الفلاحين من كل مكان حتى أصبح «دوار العمدة» غارقًا فى بركة من البشر .

وأخذ الناس يتحدثون فى شأن القتيلة والقاتل، والشائعات تسرى مسرى النار فى الهشيم، والناس فى شغف إلى المزيد من الأخبار . . لا يهم أن تكون تلك الأخبار صحيحة أو ملفقة . . إنها مثيرة ومسلية وهذا يكفى . . شىء ما فى داخل النفوس، يمكن أن يكون نوعًا من الشماتة خاصة إذا ما تعلقت الكارثة ببيت من البيوتات الكبيرة، أو بشخصية من الشخصيات البارزة ذات الثروة أو النفوذ، قد لا يفصحون عن ذلك، لكن هناك شعورًا عارمًا وإشارات وملامح، تؤكد ذلك . .

كان «الحاج يونس عبده» هو عامل التليفون فى دار العمدة، والحاج يونس شخصية غريبة مثيرة، يجمع بين الصلاح والطلاح، والكذب والصدق، والوفاء والخيانة، بعض الناس فى القرية

يسمونه «إبليس» والبعض الآخر يرى أنه داهية وذكى، وهذا كل ما فى الأمر، خرج الحاج يونس عبده على الناس وقال:

- «يبدو أن الجريمة وراءها دوافع سياسية» لم يستطع الناس أن يفهموا شيئًا مما يقول، لكنهم أدركوا عن فطرة، ومن مجرد سماع كلمة «سياسية» أن الأمر جد خطير، وذاعت مقولة الحاج يونس بين الخلق، وسرعان ما علا صوت المثقفين من أبناء القرية، وخاصة طلبة الأزهر والجامعات، وسماسرة الانتخابات والأحزاب السياسية، وتلاطمت الأمواج، وتطاير الرذاذ، وحاول كل حسب وجهة نظره أن يحلل مقولة الحاج يونس، فمن قائل إن الباشا اللواء زوج القتيلة كان يزمع الترشح فى الانتخابات المقبلة ضد الحزب «السعدى» وزعم زاعم أن المسألة لا تعدو عن كونها صراعًا بين «السراى» -يقصدون الحاشية الملكية- وبين أعدائها من المعارضين، وهناك فريق ثالث أكد بالقسم المثلث أن الباشا اللواء كان من «البوليس المخصوص» الذى أشرف بنفسه على تعذيب عدد من الموقوفين سياسيًا إبان عمله فى وزارة الداخلية قبل التقاعد، ويقال إن أحد الذين اعتقلوا فى مؤامرة قد قُتل على يديه أثناء التعذيب.

وقال أحد طلبة الأزهر بكلية أصول الدين وهو «شعبان عبد اللطيف»:

- «إن اللواء الشريحى باشا رجل فاسد فاسق، وأنه كان على

علاقة بفنانة يهودية، كما كان على صلة وثيقة بالإنجليز، وقدم لهم الكثير من المعلومات عن حركة المقاومة . . ».

كان الحاج يونس عامل التليفون يدخل ويخرج، والناس تنقض عليه إذا ما رأته، يصبون فى أذنيه مائة سؤال وسؤال، ولم يكن هذا يغير مما عزم على البوح به، فالأسئلة لا تهم بالنسبة له، الأهم أن يدلى بالتصريحات التى يريدها، وقال يونس:

- «والقضية كبرتْ جداً جداً. . ».

هتفوا فى صوت مشحون:

- «يا للمصيبة؟؟».

- «ومندوب «السراى» سيصل».

أمسكت قطيفة، زوجة أبو الفتوح الشرقاوى، بتلابيبه ووجهها الشاحب يصرخ بالرعب:

- «وزوجى يا حاج؟؟».

قال لها باشمئزاز:

-«حشرة . . ».

لم تفهم، ولم تتح لها الفرصة لكى تستسفر، لأن يونس دلف إلى الداخل، وألقمت المسكينة طفلتها الصغيرة ثديها لترضعها حتى تصمت، وتكف عن البكاء، وابنها الأكبر -ثلاث سنوات- ممسك بطرف ثيابها لا يعى مما يجرى شيئًا . .

انقلبت الدنيا رأسًا على عقب فى القرية، فمن يتصور أن التحقيق يستدعى طفلا مثل شوقى عبد الفتاح، وزميله عبد القادر وأهلهما، وبسيونى المغازى وأسرته وأصدقاءه، إن الأمور تمضى على نحو يبعث على الدهشة، لقد تأكد الجميع الآن أن هناك جريمة ارتكبت، وعلى الذين زعموا أن أبو الفتوح كذاب أشر، أن يتراجعوا ويداروا وجوههم خجلاً، فالقضية صحيحة، وها هى أسماء أبطال المأساة تتضح، لكن ما هو الوزر الذى ارتكبه أبو الفتوح الشرقاوى؟؟ أهو رؤيته للجثة؟؟ أو تواطؤه فى ارتكاب الجريمة؟؟ وما هى دوافعه إذا صح اشتراكه فى القتل والإخفاء؟؟ من المستحيل أن تكون من الدوافع سياسة فهو لا صلة له بالسياسة ولا يفهم عنها شيئًا، الاحتمال الوحيد هو أنه أغرى بمبلغ من المال. من يدرى؟ فقد يكون مدفوعًا إلى ذلك بنوع من الإكراه البدنى أو المعنوى.

وقف شعبان عبد اللطيف بين أقرانه الذين يتلقون العلم وقال:

- «أرجح أن الحكومة -فى ظل الأحكام العرفية- قد تلجأ لاعتقال عدد من السياسيين..».

- «ومتى توقفت الاعتقالات؟؟ نحن شعب مقهور.. خرج يونس عبده مرة ثالثة أو رابعة أو خامسة، وألقى بالقنبلة الكلمة:

- «أبو الفتوح الشرقاوى يعترف..».

- «بماذا؟؟».

لم يرد يونس، وإنما انطلق إلى بيت العمدة ومعه ثلاث نسوة يحملن الطعام فى الصوانى على رؤوسهن، والعمدة يقف طويلا هبيلا -كما يقولون- فى وسط ساحة الدوار ينتظر مائدة الدجاج والحمام واللحوم والأرز المحمرة وقد نفذت رائحة الشواء إلى أنوف الواقفين، وهتف رجل حافى القدمين:

- «كله من شقا المساكين. . حار ونار يا حكومة. .».

هذا زمن الأعاجيب، ما الذى زج برجل مثل أبو الفتوح الشرقاوى فى قضية غريبة كهذه، وهو لم يكن فى يوم من الأيام قاتلا محترفًا أو مأجورًا، ولا كان صاحب فكر سياسى، لم تتح له الفرصة ليقرأ جريدة أو مجلة، وليس لديه الوقت ليحضر اجتماعًا حزبيًا، أو يشترك فى مظاهرة من المظاهرات. . المظاهرات دائمًا فى المدن، ولا يقوم بها فى العادة إلا الطلبة والعمال. .

من الغريب أنهم سألوا أبو الفتوح فى التحقيق:

- «هل تعرف عباس محمود العقاد؟؟».

- «هل هو من قريتنا؟؟».

- «أجب يا حمار بنعم أم لا. .».

صاح أبو الفتوح بأعلى صوته:

- «لا. .».

- «هل تقرأ لطه حسين؟».

- «لا أعرف القراءة ولا طه حسين».

- «وهل سمعت عن الشيخ الباقورى؟».

- «أبدًا..».

- «وحسن البنا..».

ابتسم أبو الفتوح:

- «الله أكبر ولله الحمد.. ومن منا لا يعرفه؟؟».

- «كيف؟؟».

- «رجل طيب.. من أولياء الله الصالحين، ويحب الفقراء..».

- «هل رأيته؟؟».

- أبدًا.. سمعت عنه..»

-«ممن؟».

- «من الشيخ شعبان عبد اللطيف.. إنه من الإخوان المسلمين، وكان يقول لى: تعال يا أبو الفتوح.. وأنا أقول له أنا رجل.. أعنى.. المقصود..».

- «تكلم يا ثور..».

- «أنا جاهل..».

مال ضابط المباحث إلى أذن العمدة هامسًا:

- أحضروا شعبان عبد اللطيف . . ».

خرج يونس عبده، وقصد لتوه المكان الذى يقف فيه طلبة العلم بالقرية، وأمسك بيد الشيخ شعبان، وطلب منه أن يتبعه، والطلبة لا يدركون معنى ما يحدث، ومضى شعبان مرفوع الهامة وسط دهشة الجمهور المحتشد، ودخل . .

- «ماذا جرى للبلد؟؟».

صيحة انطلقت لا يعرف أحد مصدرها، لكنها كانت دلالة على ما يختمر فى النفوس من تساؤلات لا تجد الإجابات الشافية، لقد انشغل الناس عن حرب هتلر والإنجليز وعن التموين، وتوريد القمح للحكومة، وعن الدودة التى انقضت على محصول الذرة، وعن السماد الذى ارتفعت أسعاره، والأقمشة التى شحّت، والبطاطس التى لم تعد تُرى فى الأسواق، والفقر المدقع الذى حاق بالناس . .

- «أبو الفتوح جاسوس لهتلر . . ».

عبارة أطلقها يونس عبده عامل التليفون فى الدوار، ثم أسرع إلى الداخل . . ولولت قطيفة امرأة أبو الفتوح وامتزجت الكلمات بالدموع وهى تقول :

- «هو لا له فى العير ولا فى النفير . . والله العظيم كله تلفيق . . أحلف بالطلاق من ذراعى إنه تلفيق فى تلفيق . . ؟».

دا فُجـر يا ناس. . مـال أبو الفتـوح وهتلر؟؟ «كلام فـارغ يا عالم. حكومة فاضية. .».

حـين انطفـأ نور الشـمس، وعمّ القـرية ظلام أواخـر الشـهـر العـربى، كـانت الشرطة، قد رحلت ومعها أبو الفتوح وشعبان عبد اللطيف، وبسيونى المغازى، وغيرهم، ذهبت قافلة الحكومة وخلفت وراءها آلاف علامات الاستفهام لتضاف إلى مثيلاتها تحت أسقف المنازل، وفى الأزقة والحارات العتيقة وعلى شواطئ الترع، وفى اليوم التالى حضر فريق من العمال تحت حراسة الشرطة ينبشون القبور، ويحفرون فى الأراضى الزراعية بجوار «بحر العباسى» كما أحضروا معهم مجموعة من الكلاب المدربة بالإضافة إلى عدد من المخبرين الذين انبثوا فى الأسواق وأماكن التجمعات كالمقاهى وغرز الحشيش وقراء القرآن على المقابر والأضرحة، ودراويش الطرق الصوفية، لكنهم لم يعثروا للقتيلة على أثر.

●●●

الغـريب فى الأمر وما أكثر ما ظهر فى القضية من غرائب، أن أبو الفتوح الشرقاوى اعترف تفصيليًا بأنه هو الذى قام بخنق عنايات البحيرى، وأنه تقاضى مقابل ذلك مائة جنيه عدًا ونقدًا، لكن لا يعرف أين ذهبوا بالجثة، ولا يعرف الأشخاص الذين كلفوه بالمهمة، ودفعوا له الثمن.

●●●

فضيحة على الملأ

يـؤكـد «يـونس عبـده» وجـود تحريات تثبت أن الأستاذ شعبان عبد اللطيف الطالب الأزهرى، كان يتكلم كثيرًا عن إقامة الحدود كجزء من الشريعة الإسلامية، وكان يركز على أهمية إقامة «حد الزنا» وهو مائة جلدة لغير المحصن أو غير المحصنة، لكنه يصل إلى حد «الرجم» بالحجارة حتى الموت بالنسبة للمحصن قالوا له:

- «ومن المحصن يا شيخ؟؟».

قال:

- «المتزوج أو المتزوجة، لأن الزنا فى هذه الحالة يكون أكثر بشاعة.. لذا فالعقوبة الموت».

وكان الفلاحون يستمعون إليه فى اهتمام ويتساءلون عن عدم قيام الحكومة بأداء هذه العقوبة الرادعة خاصة أن بالبلد أعدادًا كبيرة تستحق الرجم، وأن ثلاثة أرباع القوات البريطانية فى مصر إن لم يكن جلهم يقترفون جريمة الفحشاء بشتى الطرق، وهم يستحقون الجلد والرجم.

وبعد ذلك الاستعراض يهمس الحاج يونس قائلا :

- «هناك دلائل تشير إلى أن شعبان عبد اللطيف قد كرر القول إنه ما دامت الحكومة لا تريد إقامة شريعة الله ، فعلى الشعب المسلم أن يتولى ذلك . . ومن المرجح لدى المحققين أن شعبان هو الذى أفتى بقتل عنايات هانم البجيرى وأن أبو الفتوح الشرقاوى هو الجلاد الذى أقام الحد مقابل مائة جنيه ، وقد استغل شعبان براءة أبو الفتوح وطيبة قلبه وفقر حاله . . وهناك شاهد اعترف بأن أبو الفتوح قال : «يا سلام . . هل هناك أحسن من ذلك؟؟ ندخل الجنة . . ونأخذ مائة جنيه مكافأة حلالا . . » .

ويستطرد الحاج يونس فى رواياته زاعمًا أن شعبان يعرف قصة انحراف «عنايات هانم» منذ فترة ، فهو على اتصال بشعبة الإخوان المسلمين فى طنطا وفى المراكز ، ويجتمع مع الأعضاء اجتماعات دورية ، يحضرها الشيخ حسن البنا أحيانًا ، وأن هناك نشرات دورية تصل إلى شعبان تباعًا فيها الكثير من الأخبار والبيانات والأوامر الحزبية .

وفى أحد الأيام خرجت إحدى الصحف الحزبية بأخبار مثيرة عن الجريمة وذكرت بعض التفاصيل الغريبة ، لكنها لم تذكر الأسماء صراحة ، الغموض فى النشر كان أفعل فى انتشار الفضيحة ، وتناثرت الاستفسارات هنا وهناك ، حتى أصبحت أسماء المتورطين معروفة ولم ينشر من الصور سوى صورة «أبو الفتوح الشرقاوى» حيث كتبت الصحيفة الحزبية تحتها عنوانًا بارزًا

يقول «ماذا وراء هذا الرجل من أسرار؟؟»، ولم تقف الصحيفة عند هذا الحد، بل أكدت أن المتهم الأول (أبو الفتوح) إذا أدلى باعترافات صحيحة كاملة، فلسوف تسقط رؤوس، وتذل نفوس، وينكشف المستور، وتفوح رائحة المستنقعات الآسنة التى يسبح فى عفنها بعض أدعياء السياسة، وتجار الوطنية، وأذناب الاستعمار.

ومن الطبيعى أن يأتى رجال الأمن ليفتشوا منزل شعبان عبد اللطيف، ويستولوا على ما فيه من كتب ومخطوطات، ما أثار مزيدًا من الذعر والحيرة.

كانت أعصاب القرية مشدودة متوترة، وغموض الموقف يوحى بالمزيد من القلق، ومع ذلك فهم ينامون بعد العشاء، ويستيقظون فى الفجر كما جرت العادة، ويذهبون إلى حقولهم، حتى فى أيام العيد المباركة، لا يستطيعون ترك بهائمهم دون طعام، وزرعهم بغير رى، وفرحة العيد تكون فى القلوب كما يقولون.

ودعا الشيخ «المداح» المتصوف الأول فى القرية إلى عقد «حضرة» عاجلة، أملا فى أن يفرغ الناس لذكر الله، وقراءة القرآن والأدعية المنظومة، لعله سبحانه وتعالى يكشف الغمة ويزيل الكربة.

ومن أعجب الأمور أن «يونس عبده» أحد الدراويش المرموقين، لماذا؟ لأنه حسن الصوت لحد ما، وهو الذى يترنم بالمدائح النبوية التى يتطوح الذاكرون على إيقاعاتها، ويهيمون فى دنيا الوله والعشق.

كان يونس عبده ينشد أثناء «الحضرة» أبياتًا من الشعر للإمام البرعى فى مديح الرسول يقول:

يا راحلين إلى «منى» بجياد شوقتموا يوم الرحيل فؤادى
سرتم، وسار دليلكم يا وحشتى الحب أرقنى وصوت الحادى
فإذا وصلتم سالمين فبلّغوا منى السلام إلى النبى الهادى

ولكلمة الرحيل ومشتقاتها فى قاموس الفلاحين إيحاءات وظلال عجيبة، تسيل الدموع، وتسرع بنبض القلوب، وتطير بهم فى سماوات عالية تخفق بالطهر والنقاء والسلام.. عندما ينشد الحاج يونس ينسى الناس مقالبه ومفاسده، فلا تبدو أمامهم سوى صورة الرجل الضارع الذاكر الذى تسيل كلماته وألحانه رقة وعذوبة، وتترقرق الدموع فى عينيه وجدًا وهيامًا، وتضىء ابتسامته الحلوة على قسمات وجهه القمحى، حتى لكأنه وجه ملاك.

بعد أن انتهى «الذكر» جلسوا مع شيخهم يتناولون الطعام، غالبية الطعام كانت من الثريد والحساء، وقليله كان من اللحم والعظام، لكنهم شبعوا وحمدوا الله، وعلى الرغم من أن الرؤوس ثقلت تحت وطأة النوم المناور، إلا أنهم بقوا يستمعون إلى «وعظية» من الشيخ المداح الذى أخذ يشرح لهم معنى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فالإنسان -حسبما يقول- عليه أن يهتم أولا بذكر الله، ثم الجد فى تحصيل الرزق، ورعاية العيال،

والإحسان إلى الجار، وعدم الانشغال بأمر السياسة، ومشاغل الدنيا التى يزينها الشيطان الذى يستهوى النفوس الضعيفة بوسوساته، ويبدو أن مثل هذا لكلام الأخير لم يجد قبولا لدى بعض الشباب الذين يتلقون العلم فى المدارس والجامعة والأزهر، إذ قال أحدهم:

- «ألا ترى يا مولانا أن مستقبل الأمة مرتبط بالسياسة المتبعة، وأن أسلوبها هو الذى يقرر مصيرنا؟؟».

بان الغضب فى وجه الشيخ، وهتف بأعلى صوته:

- «الله..».

فرددها وراء الدراويش، وعاد الشيخ يقول:

- «لعن الله السياسة.. وساس ويسوس وما اشتق منها..».

- «لكن..».

ثار الشيخ قائلا:

-«لا تخاطئ هكذا.. عليك أن تستمع..».

وساد قليل من الهرج والمرج، فرفع الشيخ يده ليصمتوا، ثم قال:

- «من قال إن ما نراه ونسمعه من السياسة؟؟ السياسة هى الإيمان بالله، والصلاة على مختاره ومصطفاه، والبعد عن الرذائل، والتمسك بالفضائل..».

ثم توقف الشيخ فجأة ونادى :

- «أنشد يا يونس . . » .

هب الحضور واقفين ، وتراصوا صفوفًا كسابق أمرهم ، وبدأ الشيخ بالتصفيق ، إنها نغمة يعرف يونس كيف يختار لها القصيدة المناسبة ، وانطلق يونس يغرد «بالبردة» للإمام البوصيرى :

أمن تذكّر جيران بذى سليم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم

علا صوت النشيج والبكاء بين الذاكرين ، وانسكبت دمعات على خد الشيخ ، فانصرف الطلبة وأحدهم يغمغم :

- «والله لا يعرفون معنى كلمات البوصيرى» .

رد عليه شاب صديق متحفظ :

- «لا يهم أن يعرفوا معانى المفردات ، لكنه هناك حياة وصدى ينساب فى أرواحهم لا يمكن التعبير عنه بكلمات محددة . . » .

✿✿✿

ما أكثر الغرائب التى تفاجئ القرية بدون سابق إنذار لقد دُهش الناس حينما شاهدوا طالب العلم الذى قُبض عليه «شعبان عبد اللطيف» يمشى فى الشارع . . كانت تبدو عليه الجدية ، ملتزمًا

بالصمت، لا يجيب عن التساؤلات، عندما يقول له أحد «حمداً لله على سلامتك» يهز رأسه ويشكره بكلمات قصار. . ويجد أصحاب الفضول أنفسهم مضطرين للذهاب إلى «يونس عبده» مصدر الكثير من المعلومات حتى أنهم أطلقوا عليه اسم إحدى وكالات الأنباء الشهيرة (رويتر).

- «يا يونس. . يا «رويتر». . احك لنا عن شعبان، يهز يونس رأسه في سعادة وافتخار، ويضيق نظراته وينظر إلى بعيد، ثم يروى لهم ما يشبع فضولهم. . خلاصة ما قاله عن شعبان إنه تعرض لآلام نفسية وجسدية وتهديد ووعيد، لكن الذى أنقذ هو أن المرشد العام للإخوان المسلمين ذهب بنفسه ومعه اثنان من كبار المحامين وقابلوا وزير الداخلية، ثم ذهبوا إلى سراى النيابة، والحكومة فى ظل الحرب الدائرة لا تريد إثارة البلبلة، خاصة فى أوساط الجماعات ذات الثقل والفاعلية كالإخوان، ويبدو أن التحقيق لم يسفر عن شيء بالنسبة لشعبان عبد اللطيف ولم يجدوا شبهة ما تضعه موضع الاتهام.

صرخت زوجة أبو الفتوح الشرقاوى ملتاعة، ورفعت يديها لله شاكية، وكشفت عن رأسها تدعو على الظلم والظالمين، وتندب الفساد، وعدم المساواة، لأنه «لو كان لأبو الفتوح ظهر، لما ضربوه على بطنه» كما المثل العامى، لقد وجد شعبان من يتدخل من أجله، وينقذه من بين براثن الشرطة، لكن أبو الفتوح ضائع. . لا سند له، ولا كبير يحميه. . ولم تستطع أن تتفهم طبيعة الموقف، كل ما

يشغلها هو: لماذا يفرج عن شعبان ولا يفرج عن أبو الفتوح؟ هل لأن شعبان متعلم، وأبو الفتوح جاهل، أم لأن شعبان رزقه الله بالمحامين، وزوجها ليس لديه ما يكفى لتوكيل محام؟؟

أشار عليها بعض الناس أن تكتب شكوى أو التماس لجلالة الملك المفدى فاروق الأول ملك مصر والسودان، أشاحت بوجهها فى غضب وقالت:

- «تريدون أن يأخذونى أنا الأخرى للسجن؟؟».

وقال البعض لها ابعثى بعريضة إلى رئيس مجلس النواب والشيوخ عن طريق نائب الدائرة.. علقت قائلة:

- «النائب لا يأتينا إلا أيام الانتخابات.. ولا نعرف له بيتًا..»

ووجهتها جارة مخلصة إلى الذهاب ليلا إلى «الخروبى» الذى اشتهر بكتابة التعاويذ، وشفاء المرضى، وفك أسر المأسورين، وزواج العوانس، وترسيخ الحب بين القلوب المتنافرة، وفك «المربوطين»، وحبل العقيمات من النساء، لكن قطيفة لم ترتح لمثل هذا التوجه، إيمانًا منها بأن الحكومة يبدو أنها محصنة ضد السحر والجان، ولعلها مكومة من أناس كانوا أصلا ينتسبون إلى دنيا العفاريت والشياطين.

فكرت «قطيفة» ماذا تفعل لزوجها؟ لا يصح أن تبقى هكذا تبكى وتندب حظها.. لا بد أن تقوم بواجبها حتى ولو ضحت بنفسها.. ولتبحث عن أى طريق.. وثب إلى ذهنها «يونس عبده»

بقامته النحيلة المديدة وبعينى الثعلب اللتين تعلوان وجهه . . هذا الداهية يستطيع أن يبحث لها عن حل . . إنه من الحكومة ، ويعرف طرقها الملتوية ، وأساليبها الماكرة . .

وذهبت إليه :

- «أنا فى عرضك» .

- «كنت أعلم أنك ستأتين» .

- «وقد جئت . . انجدنى . . » .

- «بالطبع . . ولكل شىء ثمن . . » .

- «ها هى روحى . . » .

- «لا أريد روحك . . أقل من ذلك بكثير . . » .

مرت نسمة رجاء بقلبها المحزون فخفق خفقة عابرة من الفرح ، خيل إليها أن الرجل قادر على حل الطلاسم ، ويمكنه أن يرجع إليها زوجها .

وبمشورة من الحاج يونس باعت قطيفة القراريط الخمسة التى ورثتها عن أمها بمائة جنيه ، ووقعت على عقد البيع ، ولم تتسلم من الثمن قرشًا واحدًا ، فقد أخبرها يونس أنه مسافر لتوه إلى القاهرة -أم الدنيا- ليبحث لها عن محام شهير ليترافع عن زوجها ، فالقضية -كما أفهمها- ليست من النوع العادى ، ولكنها تمتُّ بصلة إلى السياسة ، وكان زوجها «مخلب قط» فى جريمة القتل ، ولم

تفهم قطيفة كثيرًا مما قاله لها، الذى يهمها هو أن يفرج عن زوجها، بل إن قطيفة لا تعرف اسم المشترى، ولم تدر أنه هو نفسه يونس، فهذه القطعة من الأرض كانت مؤجرة لأحد الفلاحين، ولا تحصل من ورائها إلا على جنيهات قليلة . . فما أرخصها من تضحية تعيد إليها أبو الفتوح .

وسافر يونس إلى القاهرة -حسبما قيل- وبقى هناك يومين، ثم عاد دون أن يدرى أحد ماذا فعل، لكنه طمأن قطيفة وأكد لها أنه دفع المائة جنيه لمحمد الهريدى بك من أشهر المحامين، وأنه دفع من جيبه الخاص مصروفات السفر، وبقشيش الكتبة، وتكاليف الإقامة فى الفندق، مع أن البعض من أهل القرية أشاع أن يونس لم يغادر القرية، وكان محتجبًا فى الغرفة التى تعلو بناء بيته، وإن قال آخرون بأنه ذهب إلى زفتى عاصمة المركز، وزعم آخر أنه أحيا ليلة المولد فى قرية من قرى الشرقية، والعلم عند الله .

لكن اللافت للنظر أيضًا أن شعبان عبد اللطيف اختفى من القرية فجأة ذات صباح قبل مشرق الشمس، ولا يعلم أحد حتى من أصدقائه الخلص أين ذهب، لكن لوحظ أن أسرته تبدو فى حالة هدوء واطمئنان، ما يؤكد أن اختفاءه لا صلة له بالشرطة أو بأى شىء آخر يبعث على القلق .

ولم تستطع غزوات هتلر، وسقوط باريس بين يديه، وأخبار الغارات الألمانية المدمرة على بلدان الحلفاء أن تثير الاهتمام فى

القرية التى كانت بالأمس آمنة، فأصبحت اليوم تغلى كالمرجل، على الرغم من أن أبو الفتوح ليس بالشخصية المهمة.

وبقيت قصة عنايات هانم البجيرى أو «ع، ب» كما تطلق عليها الصحف المعارضة مثار الحوار، ومادة للصحف، ومجالا للخيال والتخمينات والتحليلات، كما أن زوجها «الشريحى باشا» اعتزل فى قصره لا يزور ولا يزار اللهم إلا إذا جاءه أحد رجال الشرطة الكبار، أو وكيل من وكلاء النيابة، أو شخصية بارزة من شخصيات الحزب، أو صراف العزبة التى يمتلكها والمحاسب الذى يدير أعماله، ولقد علم الشريحى باشا أن زوجه عنايات هانم قد سحبت من رصيدها بالبنك مبلغًا كبيرًا من المال قبل اختفائها بيوم واحد، ولقد تردد مرارًا قبل أن يكشف عن هذه الحقيقة لفريق التحقيق فى القضية، وهو فى الواقع غير مهتم بموضوع المال، فلديه منه الكثير، ولكن اهتمامه الأكبر كان يتعلق بتلك الفضيحة الغامضة التى هزت أركان مجده الشخصى والسياسى، وتكاد تلوث تاريخه كله، وتجعله مضغة فى الأفواه، بل إنه رجح أن الحزب الذى ينتمى إليه قد يفكر فى إصدار قرار بفصله، ما سيقضى على مستقبله السياسى وطموحه الكبير إذا حدث ذلك لا قدر الله.

قال اللص العريق «بسيونى المغازى» فى إحدى جلسات تدخين الحشيش التى يأوى إليها مساء كل ليلة إنه رأى امرأة يشك أنها عنايات هانم تسير على شاطئ النيل فى «المنصورة»، وأنه ما كاد يقترب منها ليتحقق من شخصيتها حتى دلفت إلى سيارة يقودها

رجل وسيم تبدو عليه النعمة والثراء، لكن الناس اتهموا «بسيونى المغازى» بالكذب، وحجتهم فى ذلك أنه لم يسبق له رؤية عنايات هانم، لكنه اعترض مؤكدًا أنه رآها أكثر من مرة فى قصرها وفى الشارع، كما رأى صورها فى المجلات والصحف، وأنهى حديثه قائلا: «وهل هناك من لا يعرف عنايات هانم»؟.

أما الشيخ المداح فهو منزعج جدًا لما يجرى فى قريته، لأنه ببساطة شديدة صرف الناس عن ذكر الله، إنه ضرب من اللهو فى رأيه، ويكاد يصرفهم عن تحصيل الرزق، ورعاية أسرهم، وكان الذى ضايقه أكثر أن رواد المساجد فى القرية لا يكفون عن الحديث فى أمر الفضيحة، وطلبة العلم تركوا كتبهم ومراجعهم وأخذوا يلهثون وراء الأخبار، وأن يونس عبده هو الآخر انغمس حتى أذنيه فى القيل والقال، ولكم حذره الشيخ ألف مرة من ارتياد تلك المسالك الوعرة، وفرض عليه العقوبات، لكن يونس لم يرتدع، ما دعا الشيخ المداح فى النهاية أن يصدر أمرًا بوقفه عن العمل كدرويش، وهو أمر صعب لأن البديل عنه فى الإنشاد الدينى أثناء عقد حلقات الذكر لا يضاهيه فى الصوت والإمكانات الفنية الأخرى، وحفظ النصوص، والتجاوب مع الحركة.

لقد كان الشيخ يعرف نقائص يونس، لكنه كان ينظر إليه كفنان، وما أكثر ما ينفلت الفنانون فى كل مكان على ظهر الأرض، لكن أمل الشيخ كان كبيرًا فى أن يستقيم يونس يومًا، ويتخلص من نقائصه وهفواته، والله على كل شىء قدير، لكن الأمر زاد عن

حده، وأصبح يونس مثلا سيئًا، يتعدى فساده دائرة نفسه وأسرته إلى محيط الشيخ وجماعته، فلم يكن هناك مفر من الحسم، والغريب أن يونس برغم قرار الوقف كان يذهب إلى الشيخ المداح ويقبل يديه فى ضراعة، فيسحب الشيخ يده منه فى غضب، ويطرده منتهرًا لكن يونس يطأطئ رأسه، ويظل رابضًا فى مكانه وهو يتمتم:

- «حاضر.. حاضر.. أمرك يا سيدنا الشيخ.. الذى يأتينى منك مقبول.. قل فىّ ما شئت.. أنا أستحق.. وأنا معترف» بل إن يونس كان يصر على حضور حلقات الذكر كأى فرد عادى، ويرفض مغادرة المكان عندما يطرده الشيخ، ويظل باقيًا حتى النهاية، برغم مقاطعة الجميع له وازورار الدراويش عنه، لكنه لم يستطع أن يستعيد موقعه فى الإنشاد والمديح لرسول الله.

●●●

فى ليلة سوداء صامتة، سمعت «قطيفة» طرقات على بابها، قامت فى تكاسل لتتعرف من الطارق، ودهشت إذ رأت شعبان ينتصب قبالتها فى الظلام، هتفت فى دهشة:

- «أنت؟؟».

- «نعم..».

- «ولماذا لم يخرج أبو الفتوح معك؟؟».

- «لكل شىء ميعاد».

- «المساكين تأتى مواعيدهم متأخرة . . بعد أن يفيض الكيل ، وتجف الدموع . . » .

- «هو قادم إليك» .

- «كيف؟؟» .

- «أنا أعرف . . » .

برغم شكوكها إلا أن قلبها دق من الفرح ، شعبان عبد اللطيف رجل صالح ولم تعهد عليه كذبًا ، إنها تعايش اليأس مذ رأت زوجها مكبلا بالأغلال ، وآثار السياط على وجهه وبقية جسده ، لكنها كانت واثقة أن أبو الفتوح برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وأن الله لن يتخلى عن المظلوم ، وزوجها مظلوم خائب سيئ الحظ ، يبيع الكلام الفارغ مع ما يبيعه من فواكه وخضراوات وعيدان قصب ، لكنه طيب القلب لا يؤذى أحدًا .

قالت :

- «وكلت له محاميًا كبيرًا من مصر» .

- «لا يهم» .

- «لقد بعت أرضى . . » .

- «خدعك يونس . . » .

- «ساعدنى حين تخلى عنى الناس» .

- «هناك جهات لها احترامها ووقارها قد تبنت القضية ولسوف ينكشف المستور، وتبرأ ساحة زوجك».

كان كلامه الأخير أصعب من أن تفهمه، وإن أدرك عقلها أن فيه ما يطمئن».

- «أريد أن أفهم..».

- «لن أزيد.. وأرجو ألا تخبرى أحدًا بما قلته لك الليلة.. كونى مطمئنة.. ما نحن بالذين نتخلى عن مظلوم..».

وانصرف متلفعًا بالليل، تاركًا قطيفة فاغرة فاها، محملقة العينين، لا تستطيع أن تستوعب الرسالة، ثم ابتسمت.. وانعكست أضواء النجوم الخافتة على وجهها الشاحب الذى لم يعرف الابتسام من زمن.. وانطلقت على الرغم منها زغرودة زلزلت أمواج الليل الراكدة..



الدليل الجديد

الخبر الذى برز إلى الساحة الملتهبة أثار موجة عارمة من الفضول المجنون، ففى مكان ناء قرب مدينة «المحلة الكبرى»- قلعة صناعة النسيج فى مصر- عثر الناس على جثة لامرأة عارية مقطوعة الرأس، عارية تمامًا، لوحظ أن الجثة أيضًا تميل إلى البياض، صاحبتها ذات حيوية وجمال، ولم تفلح أى جهود للعثور على الرأس، أهالى القرى المجاورة لم يبلغوا عن اختفاء أحد، أو شبهة جريمة، وكذلك سكان مدينة المحلة التى تعج بالآلاف المؤلفة من العاملين والأسر والزائرين، ذكر يونس عبده أن الشرطة سوف تأتى بأبو الفتوح للتعرف على الجثة . .

قالت قطيفة :

- «خذونى إلى هناك لأرى زوجى».

وأخذت تصيح وتلطم، وداهمتها الوساس، إذ إنه من المحتمل أن تتحول الخرافة والتلفيق أو الأكاذيب إلى جريمة حقيقية وقعت، ولم الوساوس؟؟ ها هى الجثة المقطوعة الرأس، وهرع رهط كبير

من سكان القرية إلى المكان الذى قيل إن الجثة وجدت به وقيل إن الجثة لعنايات هانم البجيرى والذى يؤكد ذلك هو يونس عبده، وخرج الناس أفواجًا كالسيل فى اتجاه المحلة الكبرى وكأنهم يتسابقون إلى مولد السيد البدوى، وعلى الرغم من تحذيرات الشيخ المداح لدراويشه بألا يذهب أحد مع الذاهبين، إلا أن البعض منهم لم يستطع مقاومة الإغراء، فما فى كل يوم يقتل إنسان أو إنسانة على هذا النحو من الأهمية. . وبعد عناء شديد وصلت الجموع المتلهفة إلى مكان الحادث، لكنهم لم يجدوا إلا رجالات الشرطة منبثين فى كل مكان ويحاصرون الموقع الذى عثر فيه على الجوال المحتوى على الجثة.

شهوة عارمة تغلى فى النفوس لمعرفة الحقيقة، لكن خيبة الأمل تجلت كصفعة على الوجوه المتلهفة، لقد قيل إن الجثة نقلت إلى المشرحة، لكى يقوم الطبيب الشرعى بفحصها وكتابة تقرير مفصل عنها، وذكر رواة الأخبار أن مصورى الصحف أتوا منذ وقت مبكر، وقيل أيضًا: إن اللواء المتقاعد والحزبى المعروف الشريجى باشا قد حضر لمعاينة الجثة، وإن دموعه انسابت بغزارة من خلف نظارته السوداء حتى بللت شاربه الكث الأبيض، لكن لم يظهر أحد ليؤكد أنه رأى ذلك المشهد المثير بعينيه. .

جلست قطيفة تبكى وتصيح تارة، وتضع التراب والطين على رأسها تارة أخرى، فهى تريد رؤية زوجها، ولا أحد يدلها على الطريق.

فى المساء عاد الركب الحائر إلى القرية دون أن يروى ظمأه إلى المعرفة، كل شىء مرهق وغامض ومثير، أما قطيفة فقد هامت على وجهها فى شوارع المحلة الكبرى تسأل عن زوجها «الحزين» هكذا تسميه . .

وأخيرًا أفادها شرطى فى مركز المحلة ينتمى أصلا إلى أهل القرية، بأن زوجها جاء فى حراسة مشددة، وأنه شاهد الجثة، وأنه . . كان مشفقًا عليه، واستدرك مؤكدًا أنه لا يعرف شيئًا عما أدلى به أبو الفتوح من أقوال، لأن التحقيق كان يجرى طى الكتمان، وأن رجالا من الكبار قدموا من القاهرة للإشراف بأنفسهم على المعاينة والتحقيق، لدرجة أن مأمور مركز المحلة نفسه لا يعرف شيئًا عن تفاصيل الموضوع.

يونس عبده أشاع أن أبو الفتوح تعرف على الجثة، واعترف بأنه هو الذى شارك فى ارتكاب الجريمة وقطع الرأس، لكنه لا يعرف أين ذهبوا بالرأس ولا بالجثة، ولو كان يعرف المزيد لأفصح عنه.

نشرت الصحف الخبر فى صفحات الحوادث، لكنهم لم يذكروا عنايات هانم بالاسم، ولا زوجها كذلك، لكن التلميحات التى بين السطور وشت بما خفى، ونشروا صورة كبيرة لأبو الفتوح، وكتبوا تحتها «القاتل فى قبضة العدالة» و«القاتل يدلى بأقوال مهمة» وقبل أن يعلن تقرير الطبيب الشرعى أفاضت الروايات المكتوبة والمسموعة عن أطراف من المأساة المشوقة، وعن قصة غرام، وليال حرام، وكؤوس وفسوق وفجور، وأموال ومغامرات سياسية . .

جلس يونس عبده وسط مجموعة من رجالات أهل القرية فى الليل، وقد ظهرت على وجهه سمات الجدية والثقة، وقال:

«علمت- والعهدة على الراوى- أن عنايات هانم عندما هربت مع عشيقها، وهو ضابط شاب من تلامذة زوجها الباشا المحترم، تنكرت فى زى امرأة ريفية تضع على وجهها الخمار الأسود.. كانت- مثلما يقولون- كالبدر خلف سحابة رقيقة جميلة.. سبحان العاطى الوهاب.. مال.. وجمال.. ودلال يا حبيبى.. اللهم استرها علينا يا ربّ وعلى نسائنا.. وكان الباشا كان الله فى عونه قد اعتاد أن يغمض الطرف عن بعض تصرفاتها.. قد تخرج وتعود قبيل الفجر وربما تختفى يومًا أو يومين.. لم يكن أمامه سوى أن يكظم غيظه، ويرضى بالأمر الواقع.. وهكذا الباشوات أيها السادة.. يعرفون ويتجاهلون.. حساباتهم غير حساباتنا.. لا يهمهم سوى أن تمضى الأمور.. أى أمور.. فى خفية وهدوء.. والتكذيب الرسمى كفيل بأن يقضى على أى شائعة، هكذا يعتقدون، والإشاعات كما تعلمون كثيرة.. والناس تعبوا من تكرارها وملاحقتها.. أليس مع أحد منكم سيجارة إنجليزى؟؟».

ونظر يونس فإذا أمامه ثلاث علب من السجائر الإنجليزية المعتبرة المهربة، تناول لفافة وأشعلها، ثم أشار عليهم أن يضعوا العلب أمامه، ففعلوا، جذب نفسًا عميقًا، ثم نفخه بهدوء وهو ساهم يفكر ويتلذذ.

استأنف يونس حديثه، وهم يستحثونه :

- «ما أجمل نكهتها!! هكذا السجائر الإنجليزية أما الكوتاريللى وحتى سجاير ملك مصر فلعنة الله عليها . . نعود إلى عنايات هانم، والعهدة على الراوى . . ».

قال بسيونى المغازى :

- «ومن هو الراوى؟؟».

- «اخرس يا بسيونى . . هذه أسرار دولة . . ».

واستطرد يونس، وقد بدا على وجهه شىء غير قليل من الضيق :

- «لا أحب المقاطعة . . «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» . . هذا كلام الله يا جاهل . . المهم أن عنايات هانم طال غيابها هذه المرة . . ساوره القلق . . سأل عنها أهلها وأصدقاءها ومعارفها، وبث عيونه فى أنحاء المدينة، لم يعثر لها على أثر، لعب الفأر فى عبه . . عاودته حاسة رجل الشرطة القديم الذى تبنى حياته على الشك وسوء الظن . . تدارس الأمر بروية، أبلغ الأمر أخيراً للشرطة بعد أن استبد به القلق، وسارت الشائعات عن ظهور جثة عند بحر العباسى . . كان أبو الفتوح الشرقاوى هو أول الخيط . . تعلمون أنتم بقية ما جرى . . والمحامى الذى وكلناه عن أبو الفتوح فى القاهرة تجمع لديه العديد من الخيوط الأخرى . . الخيوط تشابكت وتعقدت . . المسؤولون لا يعرفون لهم رأساً من

رجلين . . اعترافات أبو الفتوح متناقضة ، تحريات الشرطة متضاربة . . فى المحضر الأخير كانت أقوال أبو الفتوح غريبة . . وسأسرد على مسامعكم موجزًا عنها :

- «هل هذه هى الجثة التى شاركت فى قتلها يا أبو الفتوح؟» .

- «هى نفسها يا بك . . » .

- «وكيف تعرفت عليها؟؟» .

- «سبحان الله . . رأيتها بعينى هاتين حية . . وميتة . . » .

- «والرأس يا أبو الفتوح؟؟» .

- «يمينًا بالطلاق بالثلاثة لا أعرف أين ذهبوا بها» .

- «ومن الذى أتى بالجثة إلى هذا المكان؟؟» .

- «علم هذا عند الله» .

- «هل لك أقارب فى هذه المنطقة؟» .

- «أنا مقطوع من شجرة يا سعادة البك» . .

- «ولا لزوجك قطيفة؟؟» .

- «آه . . أين أنت يا قطيفة يا أم اليتامى . . » .

- «أجب عن السؤال يا أبو الفتوح لعنة الله عليك . . » .

- «لا قريب ولا نسيب لها . . » .

- «كيف تفسر وجود الجثة هنا؟» .

- «لا أعرف فى التفسير يا بك . . ».

عندئذ تدخل بسيونى المغازى وقال :

- «من يصدق أن الجثة تبقى على حالها طوال هذه المدة دون أن تتعفن؟».

ارتج عقل يونس، ولم يستطع الإجابة على الفور، أخذت عيناه تتحركان بسرعة فى محجريهما، وانشغل لحظات بإشعال سيجارة أخرى، ثم قال :

- «يحتمل أن تكون الجثة قد حفظت فى الثلج، ثم إن الدكتور الشافعى العائد من دراساته الطبية فى إيطاليا يقول إنهم يستطيعون الحفاظ على الجثث لمدة عام أو عامين أو أكثر فى كلية الطب . . يا أخى الفراعنة حنطوا الجثث وبقيت آلاف السنين . . والطب الشرعى هو الفيصل فى مثل هذه الأمور . .

وهب يونس عبده واقفًا وهو يقول :

- «لن أكمل الحديث، فأنتم لا تريدون الحقيقة . . هل أسرد عليكم ما تريدونه أنتم أم ما أعرفه أنا؟؟

إن كثرة الأسئلة والتعليقات تضايقنى . . أنتم متخلفون جهلة وسفلة . .».

أمسكوا بتلابيبه، وأقسموا عليه أن يبقى، وأكدوا له أنهم يصدقون كل كلمة يقولها، وأنهم يعتذرون ألف مرة عما بدر من

بسيوني المغازى، وتعهدوا ألا يقاطعوه مرة أخرى، وطلبوا من بسيونى أن يصمت أو ينصرف، فما كان منه إلا أن انتزع نفسه من بينهم، وانصرف وهو يبرطم وغمغم يونس قائلا:

- «رح وخذ نفسين من الحشيش أفضل لك».

- «وأنت؟ ألا تحشش يا يونس؟؟».

وكادت تحدث معركة، لولا تدخل أهل الخير لتهدئة الموقف، رغبة فى سماع ما جرى من أحداث للست عنايات.

عاد يونس إلى الحديث:

- «يعتقد رجال المباحث أن أبو الفتوح فى منتهى الذكاء، وأنه داهية من الدهاة لا يشق له غبار، وأن اعتقاد الناس بأنه كاذب ويهول الأمور، ويخترع الوقائع، حيلة خبيثة منه، وعملية مقصودة رسمت بذكاء ودقة.. إن من ذهبوا إلى البحر العباسى لم يجدوا فعلا غير السيارة.. تلك حقيقة لا مراء فيها، لكن أقوال أبو الفتوح عن الجثة كان صحيحًا، وأنه حينما ذكر ذلك لأهل القرية كان يريد أمرًا آخر.. لا تسألونى عن هذا الأمر الآخر، لقد سمعت عنه من أحد الكبار، لكنه لم يفصح لى عن شىء، رأس القتيلة ستظهر.. متى؟؟ فى الوقت المناسب.. ألم أقل لكم إن كل شىء مرسوم بعناية، نحن فى زمن الأعاجيب، وفى بلد الأعاجيب.. أصبح الكذب صدقًا، والصدق كذبًا، ويصعب التفرقة بينهما، وما يقال لا يقال لوجه الحق، ولكن ليخدم هدفًا، ويؤدى مهمة.

ولقد علمت أن الحكومة سوف تعطى «أبو الفتوح» حقنة يسمونها «حقنة الاعتراف». . نعم دواء معين يعطى فى الوريد، وسرعان ما ينام الإنسان، وعندما يبدأ فى الإفاقة، يجيب عن كل الأسئلة بصدق تام، إن هتلر يستعملها فى المانيا ضد المتآمرين عليه، وعلمت أيضًا أنهم سوف يستخدمون أستاذًا من أساتذة «التنويم المغنطيسى» حتى يخرج أبو الفتوح كل ما عنده من أسرار، وتلك هى المرحلة الأخيرة فى التحقيق. . ».

فوجئ الجالسون بمقدم الشيخ المداح وحوله نخبة من أبنائه الدراويش، عندما رآهم يونس عبده ارتج عليه، حتى لكأنه فقد النطق، وهب واقفًا فى ذعر، كانت لحية الشيخ ترتجف من الغيظ والغضب، ومضى الشيخ وفى يمينه عصاه المعوجة، ثم قصد لتوه يونس، وأخذ يضربه على ظهره ويصيح:

- «إبليس أيها الملعون. . متى تكف عن هذا الدجل. . متى؟؟ ألا تتوب أبدًا؟؟».

ركع يونس على ركبتيه، وأمسك بيد الشيخ يقبلها ويقول ودموع تنسكب حقيقة من عينيه:

- «أمرك يا مولانا. . ضربك لى شرف أى شرف إننى أفتخر بذلك. . اضرب واضرب. . فأنت أستاذى وشيخى وإمامى. . ولسوف أطيع أمرك. . ما قلت لهم إلا ما سألونى عنه. . ».

يقول الشيخ وهو يلهث، والعرق يتصبب من جبينه، ويبعد يديه عن يونس:

- «صرفت الناس عن ذكر الله، تصنع لهم من الأباطيل حياة . . شأنك فى ذلك شأن أصحاب الأحاديث الموضوعة . . أغرب عن وجهى . . » .

فر يونس مذعوراً، كان يجرى بخطاه الواسعة، وعوده الناحل الطويل، وطرف ثوبه الأبيض يتطاير من الخلف، وبدت الطاقية الهرمية الى يضعها على رأسه كأنها قبعة شيطان خرافى الشكل . .

ثم التفت الشيخ إلى جمهرة الواقفين قائلا :

- «تستمعون إلى أساطير يونس وخرافاته كأن على رؤوسكم الطير، ليتكم تنصتون إلى كلام الله، ودروس العلماء مثلما تنصتون إليه . . ماذا جرى لكم أيها الناس . . «سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . . » امرأة ماتت أو لم تمت . . ماذا فى ذلك؟؟ الحرب تحصد الملايين . . والناس يموتون ويولدون كل يوم . . هل صليتم العصر؟؟ لو كان الأمر بيدى لأقمت عليكم الحدود الشرعية . . اذكروا الله يذكركم، واستغفروه يغفر لكم . . » .

●●●

ظل البحث جاريًا عن الرأس المفقودة دون جدوى، وتقرير الطبيب الشرعى لم يأت بجديد يذكر، كلما فى الأمر أنه ذكر بعض الأمور التى تتعلق بعمر القتيلة، وأنها ليست عذراء (ثيب)، وليس فى الرحم ما يدل على وجود حمل، وأن العينات التى أخذت من الأحشاء ومناطق الجسم الأخرى استبعدت التسمم أو الغرق، أو

النوبة القلبية، ولم يستطع أن يقدر المدة التى مضت على الوفاة لاحتمال حدوث إجراءات للحفظ (وهذه نقطة مهمة بالنسبة لرجال المباحث)، لكن المشكلة أن الشريحى باشا بعد أن قال إن الجثة لعنايات هانم عندما رآها لأول مرة، عاد مرة أخرى وأبدى تشككه، وزعم أنها شبيهة بزوجته إلى حد كبير، لكنه غير متأكد مائة فى المائة، وعلى افتراض أنها زوجه فهو يعتقد أن الجريمة ارتكبت لأحد الاحتمالين التاليين:

أولا: بسبب سياسى، ثانيًا، بدافع السرقة حيث إن الفقيدة سحبت جزءًا كبيرًا من رصيدها فى البنك..

وبات واضحًا أن رجال المباحث يميلون أساسًا إلى اعتبار الجثة هى لعنايات هانم، وأن الجريمة كانت بسبب السرقة، حتى يختموا ملف القضية ويقدموها للقضاء، وينجوا بأنفسهم مما ألم بهم من حرج وقلق وأرق.. ومن السهل التفاهم مع أبو الفتوح الشرقاوى، والاتفاق معه على ما يجب أن يدلى به من اعترفات، حتى يتم المخطط المرسوم على الوجه الذى يريدونه، أما مسألة الرأس، فيمكن الحصول على رأس أى جثة حتى ولو كانت متعفنة، وبالتنسيق مع الطبيب الشرعى، حتى لا يضع العراقيل لإفساد الخطة الموضوعة، وبذلك يسدل الستار على القضية.

●●●

البحث عن مخرج قانونى

قال أحد رجال المباحث المحنكين :

- «ماذا يكون موقفنا إذا ظهرت عنايات هانم بعد ذلك؟؟» .

أجاب أحد زملائه :

- «احتمال ضعيف» .

- «لكنه يظل قائمًا ، ويحمل تهديدًا دائمًا لنا» .

عاد الزميل يقول فى سخرية :

- «إذا ظهرت نقتلها» .

- «لا تهرب من الحقيقة» .

- «أقول نقتلها . .» .

- «لن نفعل» .

- «ولم لا؟ أنا وبعدى الطوفان ، ثم إن زوجها الشريحى باشا قد لا يسره ذلك الظهور المحتمل ، لأنه يحمل فى ثناياه فضيحة أكبر . .» .

- «لنكن واقعيين. . ».

- «يمكن أن نقذف بها خارج البلاد، ثم نسحب جواز سفرها. . هذا إن ظهرت».

- «ستكون الفضيحة أكبر. . ».

ولم يكن من طبيعة المباحث التوقف عن البحث والعمل فى شتى الاتجاهات، ورأى البعض أن يقبض مرة أخرى على «بسيونى المغازى» متلبسًا، ولم يكن من العسير أن يمسكوا به، لكنه هذه المرة كان متهمًا بحيازة قطعة من الحشيش وأخرى من الأفيون ومعهما ميزان صغير، معنى ذلك أن بسيونى قد أصبح متهمًا بالاتجار فى المخدرات، ويبدو أنه أدرك خطورة الموقف حينما داهموه وهو يسير فى أحد شوارع مدينة زفتى بعد انتهائه من حضور سوقها الأسبوعى الرائج وما إن أمسكوا به، حتى خلع جميع ملابسه، وبقى عاريًا فى الشارع، وأخذ يستنجد ويصيح قائلا:

- «اشهدوا يا ناس. . ليس معى أى شىء. . إنهم يلفقون لى تهمة جديدة. . ».

لم يفلح ذلك كله، فقد ساقوه إلى التحقيق مهانًا ذليلا متهمًا بحيازة المخدرات والاتجار فيها، وأخذ يذكرهم بأنه رجل متخصص فى السرقة، ولا صلة له بتجارة المخدرات وإن كان يتعاطاها شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أهل البلاد، لكنه لاحظ أنهم لم يبدأوا معه التحقيق حول موضوع المخدرات، وبدا واضحًا أنهم يبحثون

عن شهود لكى تبدو إدانة أبو الفتوح الشرقاوى مكتملة بالنسبة لقتل عنايات هانم، وأكدوا لبسيونى أنهم سوف يجعلون منه «شاهد ملك» وبذلك يحصل على البراءة.

أعيدت مناقشة أبو الفتوح بحضور بسيونى، وكان من اليسير أن يوافق أبو الفتوح على الادلاء بكل ما يريدونه منه من اعترافات، كما أن بسيونى شهد بأنه هو الذى أعطى أبو الفتوح مائة جنيه لكى يشارك فى الجريمة، ووجدوا أمامهم مشكلة أخرى، من الذى دفع مبلغ المائة جنيه لبسيونى المغازى ليقوم بتوصيلها لأبو الفتوح؟؟ سؤال مهم ولا بد من الاجابة عنه حتى تبدو الأمور منطقية ويمكن تصديقها.. لكن بسيونى الخبيث الذى عاش حياة السجون مراراً وتكراراً، وصاحب خلالها الكثيرين من أعلام الجريمة وخبرائها استطاع أن يجد الحل، قال:

- «الذى أعطانى المائة جنيه هو «ابن ظريفة» قال رجل المباحث:

- «ابن ظريفة؟؟».

- «نعم..».

- «من هو؟؟ وما عنوانه؟؟ لسوف تتسع بذلك دائرة الاتهام ونوغل فى غابة من الأشواك..».

ابتسم بسيونى وقال:

- «لم أكن فى حينها أعرف معنى ذلك المبلغ، ولماذا كلفونى بتوصيله لأبو الفتوح الشرقاوى، والحقيقة- وأنا لا أكذب- أن

أبو الفتوح هو الذى همس فى أذنى بتفسير ما يجرى . . ربما لم أصدق ما قاله إلا بعد فوات الأوان».

- «حدثنا عن ابن ظريفة».

- «اذكروا محاسن موتاكم يا بك . . ».

- «ماذا تعنى يا بسيونى».

- «مات ابن ظريفة منذ أسبوعين . . قيل إنه راح ضحية الغدر من أفراد عصابته . . وقيل إنها جريمة ثأر . . وقيل وقيل . . المهم أنه مات، وأنه من أهل «كفر الطوال» وأن الحادث قيد ضد مجهول . . ».

هز الضابط رأسه باسمًا وقال:

- «فهمت . . أنت داهية يا بسيونى».

- «خدامك يا بك . . ».

- «وبذلك تسد ثغرة مهمة فى القضية . . فالوسيط أو المحرض مات . . وماتت معه أسراره . . ».

عندما أذيعت الأنباء الجديدة نشرت بعض صفحات الحوادث تقارير عدة مرة أخرى عن الجريمة التى تنزف أسرارًا مثيرة كل يوم، قالت صحيفة إن السفاح أبو الفتوح اعترف بأنه كان يتلذذ وهو يذبح الضحية البريئة، وعلل ذلك بقوله إنه يكره الثريات، ويحقد على الجميلات، لأنه ظل يحلم بهن أعوامًا طويلة، ولم يظفر

بواحدة منهن، وعلق طبيب نفسى شهير بأن المتهم أبو الفتوح الشرقاوى مختل نفسيًا، ويجب عرضه فورًا على إخصائى نفسى خبير، إذ من الظلم أن يحاكم رجل يحمل مثل هذه الأفكار والتصورات والأوهام الغريبة، وتحمس لهذا الرأى عدد لا بأس به من أساتذة علم الاجتماع والكتاب والأطباء، حتى أعلن البعض أن رجلا مثل أبو الفتوح لا يمكن اعتباره فى حالة عقلية تجعله مسؤولا عما ارتكب من جرائم. . وسعد رجال التحقيق بهذا التوجه الذى قد يغفر لهم ما قد ينكشف للناس من الضغط والإكراه والتلفيق الذى يمارسونه، كما رأوا فيه أيضًا تخفيفًا مما قد يلحق بأبو الفتوح من عقوبات. .

اتضح أن هناك ثلاثة من منتجى السينما يتسابقون فى العمل على إخراج قصة عنايات هانم فى فيلم تقوم ببطولته نجمة شهيرة وعدد من الأبطال، ونشرت إحدى المجلات أن زكى رستم- الممثل المعروف- سيقوم بدور الباشا، وفريد شوقى بدور أبو الفتوح الشرقاوى، ومحمود المليجى بدور بسيونى المغازى، واستيفان روستى بدور يونس عبده، وذلك بعد أن زار السينمائيون القرية ودرسوا عددًا من شخصياتها المؤثرة، وطبيعة المكان والزمان والتقاليد وغير ذلك من الأمور المهمة، وسرت شائعة بأن يوسف وهبى وأمينة رزق وعباس فارس وغيرهم سوف يشاركون فى التمثيل. .

قال يونس عبده بعد أن خرج من عزلته:

- «قريتنا سوف تدخل التاريخ من أوسع أبوابه. .».

ضحك الناس وقهقهوا . .

أما الشيخ المداح فقد استعاذ بالله، وحمل حملة شعواء على هؤلاء الذين يتاجرون بأحزان الناس، ويسهمون بفنونهم المنحرفة فى صرف الخلق عن ذكر الله، وعن الانشغال بالجاد من الأمور.

وعندما قيل إن هناك ممثلا سيؤدى دورًا شبيهًا بما عرف عن الشيخ المداح، ثار دراويشه وهددوا بحرق أى دار للسينما تتورط فى عرض فيلم يقترب من هذا الموضوع.

يقول الشيخ المداح لأبنائه الدراويش :

- «عندما تغيب شمس العدالة، يتفشى الحقد وتنمو الأكاذيب، ويسبح الناس فى بحر الظلمات . . ومن يفقد الأمن يعش فى الجحيم، ألا وإن الإيمان هو جنة الله على الأرض . . وإذا شاعت الفتنة . . فالزم بيتك يا مؤمن . . ولتبك على خطيئتك . . وإذا لم تبكوا فتباكوا . . ».

وبكى الشيخ . .

وبكى الرجال . .

وحدث خسوف للقمر . . وبدا القمر لأهل القرية مختنقًا رصاصى الوجه، وتغبر ضوء الليل الفضى، وبدا كأن الجو أصبح أكثر حرارة من ذى قبل، وخرجت مئات الصبايا ليلا يجبن الشوارع وهن يرددن بعض الأغانى الشعبية المعروفة فى مثل هذه الظاهرة :

يالا يا بنات الجنة

سيبوا القمر يتهنه

يالا يا بنات الحور

سيبوا القمر ينور

وأخذ الطالب شعبان عبد اللطيف يشرح لأهل القرية كيف أن ظل الأرض يقع على وجه القمر فيسبب هذا الخسوف، وكان من العسير على العامة أن يتفهموا تلك الظاهرة العلمية.

وأشارت إحدى النسوة على «قطيفة» زوجة أبو الفتوح أن تصعد إلى سطح منزلها، وتكشف عن رأسها وتدعو الله فى هذه الساعة أن يفك أسر زوجها، لأنها ساعة إجابة، كما أشارت عليها أخرى أن تقرأ «الصمدية» ألف مرة وهى على طهارة..

●●●

حينما طفا اسم «ابن ظريفة» على سطح الأحداث، تحدثت بعض المجلات الحزبية بسخرية عن الشاهد الميت، وقالت إنه من الظلم أن نلصق بالموتى جرائم لم يرتكبوها، ألا يكفى أنهم يعانون عذاب القبر وحساب يوم العرض، جلس الشريحى باشا وحيداً مكتئبًا فى عزبته، كان يفكر فيما جرى وما يجرى، وقد اقترب موعد الانتخابات، كان ساخطًا على عنايات، كارهًا لها، وتمنى أن تكون قد شبعت موتًا، فقد لوثت اسمه الذى لم يستطع أعداؤه النيل منه قبل ذلك.. هذه المرأة سقته طعم الذل، ليته لم

يتزوجها . . كانت نذير شؤم وخراب . . لو كان يعلم أن الأمور ستمضى بالصورة التى حدثت لدفنها حية ، ولما أعيته الحيل عن التخلص منها ، وهو الخبير بمثل هذه الأمور . . بالأمس كان يصنع الأحداث ويتحكم فيها ، سواء وهو ضابط ، أو وهو فى عالم السياسة والأحزاب ، لكنه اليوم- بسبب حماقة هذه الزوجة المقيتة- أصبح ينتظر كالبائس ما سوف تأتى به الأيام ، إن الانقباض يجثم على صدره ، تعرى من القوة ، وخضع للضعف والعجز ، ما زال يفتل شاربه ، ويبتسم ، ويرفع هامته عاليًا ، ويمشى بخطوات عسكرية ، ويضخم نبرات صوته ، وينثر آراءه كالأوامر ، ويتحدث حديث الحكيم الواثق من نفسه . . وذلك لأن الأقنعة ضرورة سياسية واجتماعية خاصة فى هذا الزمن ، ولا بأس أن يكون الخارج نقيض الداخل ، إنه واقف على المسرح ، ولا بد أن يقوم بدوره فى إتقان وإلا قذفه الجمهور بالبذىء من التعليقات ، أو الطماطم الفاسدة ، والبيض المشش .

فكر الشريحى باشا أن يكثف عمليات البحث عن زوجه عنايات هانم لعلها تكون حية ، وكان يقصد من وراء هذا التكثيف الوصول إلى الحقيقة ، فإذا كانت هى القتيلة فسوف يحمد الله ، ويغلق الملف إلى الأبد ، وإذا كانت حية فهو إما أن يخطفها ويعيدها إلى القصر سرًا ويفكر ، أو يجعل رجاله يتخلصون منها بأسلوب دقيق مبتكر لا يترك وراءه أثرًا ، ودون أن يعلم أحد بذلك ، وهكذا تدفن ويدفن معها سرها . . ذلك السر الذى لا يمكن إلا أن يكون مهينًا حقيرًا مقززًا . .

لا بد من معرفة الحقيقة المقنعة بعيدًا عن الحكومة وعن الرسميات، وذلك هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن يرد إليه سعادته المفقودة، وأمنه الضائع، وشرفه المستباح، ثم إنه بذلك يبدأ فى صنع الأحداث كسابق عهده، ولا يجلس بائسًا ينتظر ما تأتى به الأيام..

●●●

وانقلب أمن القرية هى الأخرى، ففى أيام قلائل داهمت الشرطة البيوت، وقبضت على الكثيرين ممن يحوزون السلاح بدون ترخيص، كما تم الإمساك ببعض تجار المخدرات متلبسين، وسيق عدد من أصحاب البقالات، وتجار الحبوب والأقمشة والأغذية بتهمة عدم مراعاة قانون التسعيرة الجبرية.. حتى الجزارون جروهم من سوق القرية.. وتساءل الناس لماذا يحدث ذلك، وفى هذا الوقت بالذات، فتهريب السلاح من المعسكرات البريطانية يقوم به بعض الرسميين، والسوق السوداء تخضع لسيطرتهم، والحشيش مثلما يقال على قفا من يشيل، بل ظهرت مخدرات ومنشطات جديدة أشهرها «البانجو» القطعة منه تباع بقرشين، والناس كانوا يبيعونه فى الشوارع والحارات دون حرج، والإنجليز هم الذين أتوا به، والسوق السوداء ضرورة معيشية لأن التموين الرسمى لا يكفى، ولا بد أن يبحث الناس عن احتياجاتهم بأى ثمن..

قال الحاج يونس عبده:

- «قريتنا هى القرية الظالم أهلها . . وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . . » .

وترددت شائعات بأن يونس عبده يشتغل كمرشد أو مخبر للمباحث ، ويتقاضى على ذلك أجرًا إضافيًا ، وهو على استعداد لأن يشى بأى إنسان حتى ولو كان من أعز أصدقائه ، ويعزى إلى يونس تلك الهجمات البوليسية على أوكار تجار السوق السوداء والحشاشين وحائزى السلاح ، بل قيل أيضًا إنه أرسل شكوى من مجهول يدعى فيها أن العمدة له حصة من التموين يأخذها ظلمًا وعدوانًا من أقوات المساكين . . مع أن العمدة من أبناء عمومته . .

الأمر الذى شد الانتباه ، وأثار موجة عارمة من السخط والغضب والدهشة هو سرقة جاموسة الشيخ المداح نفسه . . يا للكارثة ! ! جاموسة الشيخ؟ هذا لا يحدث إلا فى بلد جاحدة كافرة . . إنها الخطيئة الكبرى . . شاع الخبر ، لم يصدق الناس فى البداية . . لم يغضب الشيخ أو يخرج عن طوره ، كان هادئًا باسمًا راضيًا بقضاء الله وقدره . . وأعلن أن الشيخ سوف يتوكل على الله ويسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . .

سرقة جاموسة الشيخ المداح حادث لا شبيه له فى تاريخ القرية الطويل ، فالناس تقدم له المنح والعطايا ، وهو يفرق على الفقراء والمساكين ، ويطعم الجائعين ، ويهدى الضالين ، ويصلح بين المتخاصمين ، ويعيد المطلقات إلى أزواجهن ، ولم يشترك فى صراع

أسرى أو طبقى . . إنه رجل الله كما يقولون، إذا قامت فتنة ساهم فى إخمادها، وإذا توترت النفوس رطب القلوب بالحب والحنان، ومهما بلغ الانحراف بالناس فلا يجوز أو يتصور أن يمسه أحد بأذى . .

قال الشيخ المداح فى هدوء يحسد عليه:

- «لعل من سرقوها فى حاجة شديدة إليها، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه أوقف حد السرقة فى عام المجاعة أو الرفادة كما تعلمون من قبل، ومن يدرى؟ إن الحقيقة لا يعلمها إلا الله وحده . . لعلها لم تكن من نصيبى منذ البداية . .

انظر إلى العالم يذبح بعضه بعضًا فى حرب لا يعلم أحد متى تنتهى . . الدماء التى تسيل فى العالم من أجل المغانم والأسلاب، وليست جهادًا فى سبيل الله . . الشيطان أصبح يحكم نفوس الفرنجة وغير الفرنجة والعياذ بالله . . وماذا تنتظرون بعد الحرب والدمار والجوع أيها الناس؟؟ لسوف يأكل الناس لحوم البشر، والحمد لله أن الأمر توقف عند أكل لحوم البهائم وبالحرام . . ».

وقدمتْ إلى الشيخ أفواج من القرى المجاورة عرفوا بسرقة المواشى والزروع، واعترفوا بأنهم لصوص، لكنهم أكدوا له أن أيديهم بريئة من هذا الإثم الذى لا يغتفر، لأن سرقة جاموسة الشيخ أو أى شىء يخصه تعتبر جريمة من الكبائر التى لا غفران لها فى اعتقادهم، وأقسموا أن يبحثوا عن الجاموسة المفقودة، مهما

كلفهم ذلك من ثمن، وأنهم سوف يعاقبون الجناة على فعلتهم الشنعاء . .

وعندما طلب العمدة من الشيخ أن يتقدم ببلاغ رسمى عن حادث السرقة، أبى الشيخ إباءً حاسمًا، وأفهم العمدة أن ذلك أمر يخصه وحده، ولا دخل للجهات الرسمية فيه، وأنه لن يلجأ إلى الشرطة، بل سيتوجه بالدعاء إلى الله كى يرد عليه ضالته . .

والواقع أن الجريمة تركت فى نفوس الفلاحين شعورًا بالاشمئزاز والقرف، واعتبر كل فرد نفسه مسؤولا عن ضياع جاموسة الشيخ . . وأقيمت الاحتفالات المتنوعة بمناسبة اقتراب سفر الشيخ المداح إلى الأراضى المقدسة للحج . .

لقد كان بالقرية حجاج آخرون غير الشيخ، لكن البيوت كلها - حتى تلك التى ليس بها حجاج- تسابقوا فى الاحتفاء بالشيخ، جميع النسوة يغنين للرجل الطيب الطاهر العفيف الحسيب النسيب الذى يقال إنه من سلالة البيت الشريف، وكان فى الأغانى الشعبية التى تتردد معانى رائعة جميلة، ففى إحداها نسمع كيف أن غرفة الاستقبال (المندرة) تطلب أن تكون مع الحجاج شوقًا لرسول الله .

«المندرة بتقول:

خدونى خدونى»..

وأغنية أخرى تناجى القمر أن ينير لهم طريق «الدرب الطويل» أثناء الليل، وتناجى الشجر أن يبسط عليهم ظله فى أوقات الهجير .

يا قـــمـــر يا قـــمـــر أوصـــيك عليـــهم

وفـى الـدرب الـطـويـل تـنـور عـليـــهم

يا شـــجـــر يا شـــجـــر أوصـــيك عليـــهم

وفـى الـدرب الـطـويـل تـظـلـل عـليـــهم

وعلى الرغم من أن الطريق إلى الرسـول بين مكة والمدينة يشق الصحراء، إلا أن المغنيات الشعبيات يصورنه على أنه ملىء بالزروع الخضراء والزهور والرياحين، إن هناك عالمًا آخر يرسمه خيال المؤمنين، فيأتى صدى لما فى أرواحهم من أشواق وعشق لصاحب الرسالة الخالدة، ذلك الحب المكين الذى يحيا فى رحابه الحجاج وغير الحجاج، الفقراء والأغنياء، المتعلمون والجهلاء حتى لصوص القرية كانت تندى عيونهم بالدموع وهم يستمعون لهذه الأغانى الجميلة . .

انتهز يونس عبده هذه الحادثة الغريبة، وخرج من وكره وأعلن على الملأ أنه سيقوم بنفسه متطوعًا لجمع التحريات عن الجاموسة، وأنه لن يهدأ له بال حتى تعود، لأن ما جرى يعتبر طعنة موجهة إلى كرامة الأولياء وإلى حماة الدين، وشرف القرية كلها . .

لكن قطيفة زوجة أبو الفتوح أقدمت فى ثورة عارمة، ثم أمسكت بخناق يونس عبده وقالت :

- «أين زوجى يا كذاب؟؟» .

صفعها على وجهها فى حدة وهو يقول :

- «أوصلتْ بك الصفاقة لهذا الحد . . يمينًا بالله لأوصله لحبل المشنقة . . » .

صاحت بأعلى صوتها ، ثم أخذت تمرغ وجهها فى التراب وهى تقول :

- «وأرضى التى استوليت عليها يا إبليس؟» .

- «بيع وشراء . . بالقانون . . واضربى رأسك ورأس أهلك فى الحائط . . » .

صرخت مرة أخرى :

- «يا نصاب . . يا ناقص . . » .

التفت إلى الناس الذين تجمعوا وقال :

- «زوجها وضمن بختها؟؟ علينا أن نسعى والنتيجة على الله . . ثم ماذا أقول لكم .

هناك أسرار لا يمكن أن تعلن على الملأ . . » .

قال شعبان عبد اللطيف طالب العلم الأزهرى :

- «تكلم والسر فى بير . . ليس بيننا غريب ، ثم هل بقيت أسرار؟؟» .

تلفت يونس حوله ، وقال بصوت خفيض حتى يفلت من قبضة قطيفة ، وينجو من المأزق الحرج الذى وجد نفسه مقيدًا فيه :

- «يا ناس. . عنايات هانم لم تمت. . عنايات هانم فى السرايا الملكية. . لقد أصبحت من وصيفات الملوك. هذه مراسيم ملكية. . ولهذا فإن ملف القضية سيغلق، وسيعود أبو الفتوح الشرقاوى إلى داره. . إن المحامى الذى وكلته فى القاهرة يعرف الكثير الذى لا يمكن أن أبوح به. . ».

تداول الناس كلمات «يونس عبده» وشاعت فى القرية بل فى القرى المجاورة، ويبدو أن الأمر قد بلغ مسامع المباحث.

وبعد أن أعلنت القضية بعد التكيف القانونى لها، واعتراف أبو الفتوح، وشهادة الشهود أصبحت جاهزة للعرض على المحكمة. . لكن حدث بعد يومين أن المباحث جاءت ليلا، واعتقلت يونس عبده، واتضح للناس فيما بعد أنه سوف يحاكم بتهمة العيب فى الذات الملكية طبقًا لنصوص القانون، حيث تقوّل بعض الأقاويل على الملك والسراى دون بينة أو دليل فى وقت كانت الأحكام العرفية فيه معلنة، كما تم استدعاء بعض أهل القرية للشهادة ومنهم قطيفة زوجة أبو الفتوح وطالب العلم شعبان عبد اللطيف، وغيرهما. .

وقع العمدة فى حرج بالغ، لأن يونس عبده موظف حكومى، ثم إنه قريبه، بالإضافة إلى كونه مرشدًا للمباحث والعمدة يعلم ذلك. . ثم إن جاموسة الشيخ التى سُرقت، وبعض الحرائق التى أشعلت من مجهولين فى البلد، وقضايا التسعيرة والمخدرات،

وقضية أبو الفتوح الشرقاوى، كل هذه الأحداث عجلت بإصدار قرار فورى بوقف العمدة عن العمل، وتكليف نائبه بأن يقوم بعمله، وكان وقف العمدة كارثة من نوع آخر، فالموت ولا هذا، لأن نائبه من أسرة معادية لأسرته، والمسألة مسألة كرامة وشرف.

وتصادف فى هذا الوقت أن حاصرت القوات البريطانية قصر الملك فاروق الأول ووجهت إليه إنذارًا حاسمًا، بضرورة تكليف النحاس باشا زعيم الأغلبية المطلقة فى الانتخابات الحرة التى جرت بتأليف الوزارة، وعلى الرغم من أن أحزاب الأقلية التى كانت قد فشلت فى الانتخابات قد رفضت الإنذار البريطانى، ودعت الجميع إلى رفضه، إلا أن الملك لم يجد مناصًا من الإقرار بالأمر الواقع، وتكليف النحاس بتشكيل حكومة وفدية، يمكنها السيطرة على الأمور فى مصر، فى أثناء هذه الحرب الضارية على مستوى العالم، والتى لا يعرف أحد لها نهاية.

لم تهتم القرية بما جرى فى القاهرة، كان اهتمام أهلها منصبًا على جاموسة الشيخ المسروقة، وعلى قضية أبو الفتوح المعقدة، وأخيرًا على قضية يونس عبده المتهم بالسب فى الذات الملكية، وهذه أول قضية من نوعها فى البلد.

وقبل أن يسافر الشيخ المداح إلى الحج بيومين اثنين شاهد الفلاحون فى الصباح الباكر لدى عودتهم من صلاة الفجر مشهدًا من المشاهد المذهلة!!

كانت جاموسة الشيخ تتبختر وحدها فى شارع القرية الرئيسى دون أن يقودها أحد، كانت تسير فى هدوء غريب غير عابئة بما حولها، متوجهة إلى بيت الشيخ دون دليل، وهلل الحاضرون وكبروا.. وخرج النسوة والأطفال والنوم يداعب الجفون، وصحت القرية عن بكرة أبيها تشاهد ما اعتبروه فى عداد الكرامات.

وانطلقت الزغاريد من كل مكان.. فى الشارع.. وعلى الأسطح.. واختلطت زغاريد النساء بتكبيرات الرجال، وفرحة الأطفال، وشقشقة العصافير.. وسارت الجاموسة فى موكب رائع وقد تكدس حولها مئات البشر.. كانت الجاموسة تمشى كملكة متوجة، والناس يفسحون لها الطريق، ويقدمون لها الطعام وهى لا تكترث، وترفض أن تتعاطى شيئًا.. بل أخذ البعض يشق الكتل المتراصة لينعم بلمس الجاموسة، كأنها أصبحت مصدرًا للبركات.

عندما علم الشيخ بالنبأ وهو جالس يتلو أوراده فى المسجد، تمتم بكلمات قليلة والرضى يكسو وجهه:

- «المال الحلال لا يضيع.. اتركوها فإنها مأمورة..».

وتناقلت الأفواه حكمة الشيخ، وانطلقت الروايات العديدة هنا وهناك، فمن قائل إن سارق الجاموسة قد أصيب بالعمى، مع أن أحدًا لا يعرفه حتى الآن..، ورفيقه الثانى قد فقد النطق وأصيب بالشلل، أما الثالث فقد فقد عقله، وأصبح يسير فى الطرقات ضحية الهلوسات..

ولم يكلف أحد نفسه أن يتحرى الأخبار، أو يسأل عن الأشخاص الذين ارتكبوا الجريمة، فكل شىء لا بد أن يتضح، وجاموسة الشيخ ليست كبقية الجاموس فى القرية.. والسبب بسيط ويتركز فى السؤال الذى يفرض نفسه: «لماذا عادت بالذات جاموسة الشيخ وحدها، ولم يعد غيرها من البهائم التى سُرقت من قبل؟؟».



المفاجأة

انتفض «الشريحى باشا» واقفًا حينما تناهى إلى سمعه كلمات على الطرف الآخر من الهاتف، قال الصوت:

- «عنايات هانم هنا».

شحب وجهه، ودق قلبه العجوز حتى كاد يسقط على الأرض إعياءً، إنّه مريض بقصور فى الدورة التاجية للقلب، والانفعال قد يؤدى إلى إصابته بنوبة قاتلة إثر انسداد فى هذه الشرايين، تحسس جيبه بسرعة وأخرج قرصًا من الدواء وضعه تحت لسانه، وأخذ يمصه وقال بصوت مضطرب:

- «أين هى الآن؟».

- «فى مكتب مدير البنك».

صدق ما توقعه الشريحى باشا، لقد قال فى نفسه إن عنايات إذا كانت حية فسوف ينفد ما سحبته من النقود، وتعود إلى البنك مرة أخرى، كان الاحتمال ضعيفًا لأنها فى المرة الأخيرة كانت قد سحبت مبلغًا كبيرًا، فضلا عن أن نشر اختفائها فى الصحف

سيجعلها أكثر حذراً إذا كانت حية، لكن يبدو أنها اعتمدت على ثقتها بمدير البنك، ولأنها لم تكن تتوقع أن زوجها سوف يرصد العيون حول مظان ترددها خاصة فى النادى والبنك ومحل حياكة الملابس والكوافير وغيره من الأماكن الأخرى.

قال الشريحى باشا للموظف المكلف بالمراقبة فى البنك.

- «إذن تباطأوا قليلا فى صرف المبلغ لها حتى أدبر أمورى.. لا تجعلها تفلت.. مفهوم».

فكر الشريحى باشا ماذا يفعل؟؟ إنه لو داهمها أمام أعين الناس وبصرهم، فستكون كارثة خاصة إذا قاومت وصاحت، ولهذا بيَّت فى نفسه أمراً.. لسوف يتابعها هو ورجاله حتى تصل إلى المخبأ الذى تأوى إليه، ثم يحاصر المخبأ، وبعدها يتصرف كما يحلو له، ستكون هى وعشيقها صيداً ثميناً قد وقع فى شباكه، وله الخيار بعد ذلك أن يفعل ما يشاء.. وقاد الشريحى باشا بنفسه حملة المداهمة أو المراقبة، كأنه يقوم بعملية دقيقة مرسومة بعناية.

وابتلع قرصاً آخر مهدئاً للأعصاب هذه المرة، وأخذ يرقبها داخل سيارته من بعيد وهى تخرج من البنك وحقيبتها فى يدها، ونظارتها السوداء على عينيها، وأغلب أجزاء وجهها ملفعة بشال أسود بحيث لا يستطيع أحد التعرف عليها ممن رأوها من قبل، لكن الشريحى يستطيع بخبرته وحسه أن يتعرف عليها فى قلب العتمة..

ركبت السيارة وإلى جوارها عشيقها، حاول أن يتذكر من هو، وهل رآه من قبل أم لا؟؟ الملعونة لا تكتفى بواحد، موزعة القلب، متعددة الولاءات، نجسة الطباع، عندما يقبض عليها وعليه، فسوف يسفك دمها وسيقطع رقبته، ولسوف يدفنهما فى مكان لا يعرفه أحد حتى الذباب الأزرق.. هذا هو الحل، لا يستطيع القبول ببقاء عنايات حية على وجه الأرض بعد العار الصاخب الذى أغرقته فى لجته.. وهذا أقل عقاب ممكن، ولتبحث عنها الشرطة ما شاء لها البحث، ولتكتب الصحف والمجلات تفاصيل الأساطير التى تحلو لها، إنه يريد أن ينتهى من هذه المأساة، يريد أن يستريح، ولا حل سوى الموت.. نعم الموت هو الحل الحاسم لهذه الفضيحة النكراء التى لوثت شرفه وسمعته، وهددت مستقبله السياسى.. كانت بالنسبة له مجرد «ديكور»، ومن السهل تغيير «الديكور» مع تغير الأذواق والزمن والظروف.. فى ميدان «باب الحديد» بالقاهرة تزاحمت السيارات الصغيرة والحافلات الكبيرة، وعربات «الكارو»، وارتبك المرور ووقعت حوادث، واختلط الحابل بالنابل، وفرت سيارة «عنايات هانم» كيف حدث ذلك؟؟ لكن لماذا التساؤلات التى لا جدوى منها؟ نزل الشريحى باشا من سيارته، وأصدر تعليماته لرجال قافلته المكلفة بالعملية، وأشار إلى أن سيارة رقم واحد يجب أن تذهب إلى مخرج القاهرة إلى طريق الإسكندرية، والثانية إلى مخرج القاهرة طريق الإسماعيلية، والثالثة إلى.. وهكذا حتى يمكن محاصرة كل المخارج.

وأسفرت الجهود المبعثرة ذات الطابع المتوتر عن فشل ذريع، وفرت عنايات وعشيقها، فارتمى الشريحى على مقعد سيارته الأنيقة يتفصد جبينه عرقًا.. هذا الفشل يكاد يقتله.. فكر أن يخرج مدفعه الرشاش ويحصد كل من يجده أمامه، إنه لا يستطيع الصبر، لكن ما قيمة ذلك العمل الطائش، وبينما هو منشغل بأحزانه وانفعالاته الهادرة، ألقى أحدهم بورقة فى سيارته.. نظر فوجد دراجة نارية تنطلق كالسهم، ما صلة راكب هذه الدراجة به حتى يقذف له بهذه الورقة؟؟ أمسك بالورقة بيده المرتجفة وأخذ يقرأ «لا تقلق.. إن رجالنا وراءها، وسوف نأتى بها، فعد إلى قصرك».

دارت رأسه: هل هناك من يراقبها ويراقبه؟؟ ومن يكون؟ إن الشرطة عادة لا تبذل مثل هذه الجهود الدقيقة، ولا تشغل نفسها بهذه الأمور إلى تلك الدرجة، احتمال أن يكون بعض أعدائه.. أو ربما بعض رجالات حزبه يحاولون فك طلسم اختفاء عنايات، ولهذا وذاك هدفه الخاص به، وهذا أمر يزيد من انزعاج الشريحى باشا وقلبه، كان يريد أن يكون هو وحده المسؤول عن الإمساك بها، كما يتمنى أن يرتب الأمور بالطريقة التى رسمها وخطط لها، أما تدخل الآخرين من جانب الأصدقاء أو الأعداء أو الشرطة فسوف يورث خطته الفشل. لقد ربا غمه وطغا ضيقه، وآلام صدره تعاوده، قطرات من العرق البارد تندى جبينه الشاحب.. أخذ يلهث بصورة تدعو إلى القلق، قال لسائقه:

- «خذنى إلى المستشفى».

لم يستطع الشريحى باشا أن يبعد شبح عنايات عن ذهنه وهو راقد تحت خيمة الأكسجين فى غرفة الإنعاش بالمستشفى، والذى كان سراً بالأمس تناولته الصحف اليوم، وأجرى تحقيق شامل عاجل فى مقر البنك الرئيسى بالقاهرة، وثبت يقيناً أن عنايات قد أتت وسحبت جزءاً من رصيدها هناك، وكان التوقيع توقيعها، فضلا عن أنها شخصية معروفة لدى مدير البنك، ولها حسابات جارية فى طنطا والقاهرة والإسكندرية وكتبت إحدى الصحف تقول:

«أفرجوا عن البرىء أبو الفتوح الشرقاوى».

وتعرضت الداخلية لنقد لاذع فى أكثر من جريدة ومجلة، وكذلك النيابة، ما حدا بأحد الرسميين أن يصرح قائلا: «إن القضية معقدة، وهناك جرائم قتل ارتكبت لم تتضح حقيقتها بعد، والغموض يلف الموقف كله، والمتهم أبو الفتوح الشرقاوى اعترف بواقعة القتل، لكنه لا يعرف حقيقة أو هوية الضحية، لذا فإن ظهور عنايات هانم إن ثبت، فلن يغير من الواقع وهو أن يدى أبو الفتوح الشرقاوى ملوثة بدماء بريئة . . . والنيابة تؤكد فى كل مرة أنها تتحرى الصدق والعدالة، وأن موقف المتهم سوف يحدد فى أقرب فرصة ممكنة» كما صرح أحد رجال الشرطة المرموقين «إن رجالنا بصدد الإمساك بطرف مهم من أطراف القضية الشائكة، ونحن نحتفظ بسرية التحقيق وعدم النشر حتى نستطيع الوصول إلى الحقيقة بأيسر وأسرع السبل».

أما الأستاذ «حسن سليم» -وهو محام شهير منتسب لجماعة الإخوان المسلمين- فقد قدم مذكرة للنائب العام يطالب فيها بالإفراج عن أبو الفتوح الشرقاوى، وجاء فى هذه المذكرة:

- « . . إن القضية لم تعد قضية فرد . . إنها تشكل امتحانًا للدستور والقوانين، ولجوهر العدالة . . والاعترافات التى سيقت على لسان أبو الفتوح الشرقاوى جاءت نتيجة الإكراه البدنى والنفسى، إننى أشك بقوة فى تأثير العنف والضغط على المتهم، ما أسفر عن اضطراب فى قواه العقلية . . إن الإصرار على عدم الإفراج عن المتهم المسكين يشكل جريمة فى حد ذاته، وهو أمر يتنافى مع العدالة . . إننى أطالب بتطبيق نص القانون فى مواده المعروفة . . وما قيل عن وجود ضحايا آخرين لا يكفى كمبرر لبقاء المتهم أبو الفتوح الشرقاوى خلف الأسوار . . إن إبقاء المسكين فى سجنه إنما هو وسيلة خبيثة لتغطية فشل الأجهزة الأمنية والقضائية فى الوصول إلى الحقيقة . .

هذا وهناك مفاجأت تتعلق بالقضية لا أجدنى فى حل عن الإفصاح عنها الآن للمصلحة العامة، وستعلن فى حينها، ولكن أؤكد أنها لصالح القضية ولصالح المتهم، وسوف تسلم إلى سعادة النائب فى الوقت المناسب . . ».

وبدا واضحًا أن أبو الفتوح الشرقاوى أصبح يلقى تعاطفًا صريحًا من جانب الصحافة ورجال القانون، وأصبحت صورته

أمام الجميع صورة الإنسان البرىء، الساذج الذى أصبح كبش فداء فى أمور عائلية عاطفية وسياسية وحزبية وأمنية، ولا شك أن بقاء الموقف متجمداً على هذا النحو يسىء إلى سمعة الشرطة والقانون، ولهذا بادر النائب العام بعقد عدد من الاجتماعات، وأخيراً أصدر أمره بالإفراج عن أبو الفتوح الشرقاوى بالضمان الشخصى.

وغطت أخبار الإفراج على أخبار الحرب وهتلر والضائقة الاقتصادية والاجتماعية التى تعانى منها مصر، وحاول بعض الكتاب الحزبيين أن يتناول قضية أبو الفتوح الشرقاوى من منظور عام، مؤكداً أنها صورة تعسة للوضع المتردى الذى آلت إليه مصر فى هذه الحقبة التاريخية السوداء، وأنها تجسيد للأوضاع المهترئة للطبقات التى تزعم أنها راقية ومتحضرة وشريفة..

وانهالت التبرعات على أبو الفتوح، وامتلأت يده بالمال، وبيته بالخيرات، وأوفد رؤساء الأحزاب مندوبين عنهم لمساعدته ومساندته بشتى الأساليب، وأصبح المترافعون عنه فى القضية ثلاثة محامين، على رأسهم الأستاذ حسن سليم الذى قدم العريضة الشهيرة للنائب العام.

●●●

فرحت القرية أيما فرح بالإفراج عن أبو الفتوح، وخرجوا بصورة شبه جماعية يستقبلون الرجل الفقير الأمى الذى صنعت منه

الأقدار بطلا دون رغبة أو إرادة، وانهمرت مئات القبلات على وجهه وجبينه، وهو شارد ذاهل حائر النظرات، لا يدرى أهو فى حلم أم حقيقة، وكم كانت دهشة الجميع الكبيرة حينما رأوا الشيخ المداح يقدم لتهنئته، هنا أفاق أبو الفتوح من شروده، وانكب يقبل يدى الشيخ ويمطرها بالدموع، ويقول بصوت جريح:

- «أنا مظلوم.. والله العظيم مظلوم يا مولانا.. لم أقتل أحدًا.. لو كذبت على الناس جميعًا فلن أكذب عليك..».

هز الشيخ رأسه فى أسى وهو يسحب يده من بين يدى أبو الفتوح وقال:

- «أعرف أنك برىء».

- «ضربونى يا مولاى».

- «منهم لله يا ولدى..».

- «وكنت فى دوامة.. لا أعرف لى رأسًا من رجلين..».

- «لن يضيعك الله..».

- «كنت أقول كلامًا يخرج منى دون وعى..».

- «لا يصح إلا الصحيح يا أبو الفتوح..».

- «فى البداية كان مزاحًا وتسلية..».

- «هذا هو خطؤك..».

- «لم أكن أعلم أنه سيلف حبل المشقة على رقبتى . . ».

- «ولعلك تعلمت الدرس . . ».

- «هذه الدنيا كل مجرم يريد أن يلقى بجريمته على برىء . . ».

- «عم الفساد . . حكم الأبالسة . . ».

استطاعت زوجه قطيفة أن تشق الزحام وتصل إليه بصعوبة، تشبثت بثيابه، أخذته جراً إلى بيتهما الواطىء الأكلح، جرت . . جرى معها . . دخل الدار . . قاسها بنظراته . .

- «أغلقى الباب يا قطيفة . . أريد أن أستريح . . أريد أن أنام . . لم أنعم بالنوم منذ ليال طوال . . ».

احتضنته، وأجهشت بالبكاء، وبكى الطفلان . . وبكى أبو الفتوح، وتمتمت قطيفة بصوت حزين وهى ترفع عينيها إلى السماء :

- «منهم لله . . ».

●●●

لغز جديد

نشرت جريدة «الليالي الغراء» خبراً مفاده أن الصحفي الكبير والناقد الفني المشهور «الزير أبو ليلة» سوف يكتب تباعًا مذكرات أبو الفتوح الشرقاوي كما وردت على لسانه تقريبًا، فأثار هذا الخبر موجة من الاعتراض عند البعض، ولقي قبولا شديداً عند البعض الآخر، فمن قائل إن الأستاذ «الزير أبو ليلة» -برغم أنه يختفي وراء ستار الفن والحياد- فإنه سوف يستغل الموضوع استغلالا سياسيًا لصالح فئات حزبية وسلطوية معينة، ورأى آخرون أن السيد الزير لا يهمه سوى الفضائح والإثارة، فالقضية لديه امرأة لها نزواتها وعشاقها ولا شيء غير ذلك، لكن الجهات الأمنية والقضائية كان رأيها أن الموضوع سابق لأوانه، وأنه قد يضر بالتحقيق، أما رئيس التحرير فلم يكن يهمه إلا رواج صحيفته، ونظراً لأن الموضوع شائك، والرقابة سوف تؤدي دورها، فقد أجرى اتصالات على مستوى عال كي يضمنوا له عدم مصادرة الجريدة، لكن محامي الشريحي باشا بادر برفع قضية مستعجلة أشار فيها إلى خطورة نشر مثل هذه المذكرات، التي قد يكون بها مساس بشخصيات ذات حيثيات كبيرة.

وجرى جدل وصراع شديدين حول هذه المذكرات، وفى هذه الأثناء لم تكف جريدة «الليالى الغراء» عن نشر الإعلانات عن المذكرات، وبعض المقتطفات القصيرة المليئة بعلامات الاستفهام والتعجب، مع صور من زوايا مختلفة لأبو الفتوح الشرقاوى.

لم يكن موضوع نشر هذه المذكرات بالأمر السهل، وكان واضحًا أن التنفيذ صعب، وفى فجر إحدى الليالى دق باب أبو الفتوح الشرقاوى، هب أبو الفتوح واقفًا، لقد أصبح نومه خفيفًا بعد التجربة المرة.. ذهبت الأيام الجميلة التى كان يستغرق فى النوم بمجرد أن يلقى بجسده على المصطبة أو الفرن فوق حصيره القديم، كان النوم والشهية المفتوحة وقطيفة هى الملذات الحلال التى ينعم بها فى حياته.. أيام الرعب التى عاشها خلف القضبان، وفى عنف الاستجوابات والتحقيقات والتعذيب قد نقلته من دنيا إلى دنيا جديدة، ومن عصر إلى عصر، ومن حال إلى حال.. قال له الشيخ المداح:

- «هذا عصر الضلال.. وبنوه ضالون مضلون.. لم يعد أحد يعرف الصدق من الكذب.. ولا الوهم من الحقيقة.. إنهم يصنعون المواقف.. وكل شىء على هواهم.. والناس ضائقون..».

صرخ أبو الفتوح فى رعب وهو يتصنع الشجاعة مثل شرطى الدرك.

- «من هناك؟؟».

جاءه صوت من الخارج :

- «أصدقاء . . » .

الصوت غريب على أذنه ، وكذلك الكلمة . .

- «افتح يا أبو الفتوح . . » .

- «لن أخرج» .

- «لا تخف . . جئنا لمصلحتك» دق قلبه . . لطالما دق ودق . . حتى كاد يسقط إعياءً .

- «اتركونى فى حالى يا ناس» . .

- «افتح يا مغفل . . قلنا جئنا لمصلحتك» .

هذا بداية التهديد والعنف ، ولا مفر من أن يفتح الباب ، كانت قطيفة والطفلان يغطون فى نومهم العذرى الذى لم يخالطه الرعب . . اجتاحته موجة من عدم الاكتراث ، قال فى نفسه : هل سيحدث أكثر مما حدث . . ليكن ما يكون . . هى موتة أو موتتان؟

عندما فتح الباب رأى فى العتمة وجوهًا لرجال ثلاثة من ذوى الشأن على ما يبدو ، عرف ذلك من ملابسهم والجدية المرتسمة على وجوههم ، إنهم أشبه برجال التحقيق :

- «البيت ليس قد المقام . . » .

قال رجل رشيق ذو صحة جيدة :

- «سنذهب إلى دوار العمدة».

ارتجف أبو الفتوح وقال:

- «ولماذا دوار العمدة؟؟ أهو تحقيق جديد إذن؟؟ لم أعد أحتمل..».

- «لا.. لا.. قلنا جئنا لمصلحتك.. وأنت برىء».

بات واضحًا أن العمدة على علم تام بما يجرى، وأنه قد وفر كل الإمكانات لخدمة القادمين المجهولين.

تكلم رجل من القادمين وقال:

- «إن نشر مذكراتك قد يجر عليك الوبال.. ويفتح باب التحقيق من جديد.. وسترُفع ضدك العديد من القضايا الخاصة بالتعويض ورد الشرف، والنهاية الحبس والغرامات..».

قال أبو الفتوح وقد فغر فاه:

- «لم أفهم ذلك».

- «لأن الذين يريدون الإيقاع بك أبالسة..».

وأقنعوه أن من صالحه ألا ينشر شيئًا على لسانه مهما كان الإغراء، فرجال الأمن قادرون على أخذه مرة أخرى إلى الحبس، بل يمكنهم أن يلفقوا له عشرات التهم بدقة لا نظير لها، فهم الغالبون دائمًا، ولن ينكسروا أمام أى قوة فى البلد، والمذكرات سوف يستغلها البعض استغلالا قبيحًا «وأنت يا أبو الفتوح

الضحية . . المسكين . . وإذا كانوا سيعطونك مائة ثمنًا للمذكرات فسوف نعطيك ألفًا . . . وأنت الرابح . . الصمت أغلى من المذكرات ونحن ندفع الثمن عطفًا عليك . . لست فى حاجة إلى المزيد من المتاعب . . هل فهمت؟؟» .

تلفت أبو الفتوح جواليه وقال :

- «من أنتم؟» .

- «أهل خير» .

- «فى هذا الزمان؟؟» .

- «نعم . . » .

- «وما معنى المذكرات؟» .

- «قصة حياتك التى تريد جريدة «الليالى الغراء» نشرها على حلقات . . » .

علق فى دهشة :

- «حياتى؟؟ ماذا فى حياتى غير الفقر والهوان والذل» .

- «القضية يا أبو الفتوح . . » .

- «أى قضية . . تخريف فى تخريف . . فالناس فى بلدنا يستمتعون بالكذب، ويرفهون عن أنفسهم . . والحكومة تريد الكذب حسب مصلحتها . . وأنا طول عمرى ثرثار . . أعنى

كذاب . . وقد أخذت جزائى . . ليس فى حياتى قصة لها قيمة . . لم أكن قاتلا ماجورًا . . ولا عمدة . . ولا شيخ خفر . . ولا . . » .

قاطعه أحد السادة قائلا :

- «ابصم على هذه الورقة» .

ثم وضع يده فى جيبه ، وأخرج رزمة من الأوراق المالية ، وأضاف :

- «وخذ هذا المبلغ هدية» .

- «على أى شىء أبصم»؟؟» .

- «تعهد بألا تنشر مذكراتك . . » .

- «أخاف أن أبصم على اعترافات ملفقة . . » .

- «لسنا من هؤلاء يا أبو الفتوح . . معنا هنا مندوب من الشرطة وحضرة العمدة . . » .

- «وهذا يزيد من خوفى . . » .

- «لو كنا ننوى بك شرًا لانتزعناك انتزاعًا ، وأخذناك جرًا إلى الحبس . . » .

ثم صاح الرجل الغريب :

- «ابصم يا حمار» .

قال أبو الفتوح فى اضطراب :

- «حاضر يا بك . . » .

- «خذ الفلوس . . » .

- «لا أريد . . » .

- «لا تكن غبيًا . . » .

ورأى أبو الفتوح حضرة العمدة عن بُعد يتسلم خفية مبلغًا من المال، كما رأى عسكرى الحراسة هو الآخر يعد بعض النقود فى ركن قصى، وعلى وجهه ترتسم أمارات السعادة .

قال الرجل المهم :

- «إذا طلب أحد منك تصريحات . . أو مذكرات . . أو أى كلام ارفض يا أبو الفتوح . . قلت لك الصمت أغلى من الذهب . . ولن نتخلى عنك أبدًا، وسنكون إلى جوارك حتى تنال البراءة . . » .

وبعد يومين نشرت جريدة «الليالى الغراء» تعليقًا غاضبًا، أشارت فيه إلى أن قوى الضغط والإرهاب وعصابات الظلام قد تدخلت بجبروتها ووسائلها الخبيثة لمنع أبو الفتوح من رواية مذكراته ونشرها، وأنها سوف تعمل جاهدة على كشف مؤامرة التعمية والكبت التى يمارسها ذوو النفوس المريضة . . وصرح «الزير أبو ليلة» بأنه بدأ فى كتابه قصة جديدة للرد على أجهزة القمع، وأعداء الحرية . . وفى اليوم الذى نشر فيه تصريح الأستاذ «الزير أبو ليلة» نشرت صحيفة المساء أن «الأستاذ الزير» قد حدث

احتكاك بينه وبين أعضاء نادى الجزيرة، وترتب على ذلك أن أخذ «علقة ساخنة» أسالت دمه، ولم تنجل عن إصابات خطيرة، ومن الغريب أن أحد المعتدين انتزع قلم الأستاذ الزير وصوبه نحوه وقال:

- «لولا أنى إنسان متحضر لغرزت هذا القلم المأجور فى عينيك..».

إن أمورًا كثيرة تجرى فى الخفاء، القضايا المهمة فى البلد تتوارى، وتطفو على السطح أحداث ثانوية أو فرعية لا قيمة لها، وينشغل الناس بأمور تافهة، ويبقى الحال على ما هو عليه، والحرب دائرة بين المحور والحلفاء، وحكايات لا حصر لها عن هتلر والمعارك، والمستقبل للدنيا كلها غامض لا يعرف أحد ماذا سيحدث غدًا، والغلاء كغول، والفقر ينشب أظفاره، وتجار السوق السوداء تنتفخ كروشهم وجيوبهم، والفلاحون أرهقهم «الرجيم» الإجبارى، ولهذا فهم لا يشكون ارتفاع نسبة الكوليستيرول فى الدم ولا الضغط ولا الذبحة، فقط الأنيميا.. فقر الدم، والبلهارسيا..

يقول أبو الفتوح لزوجه قطيفة:

- «الفلوس زادت همى.. والناس يعرفون.. واللصوص فى كل مكان.. أخاف أن يقتلونا ويستولوا عليها.. هل نهاجر إلى قرية أخرى فى آخر الدنيا لا يعرفنا فيها أحد؟؟ أنذهب إلى مصر أم

الدنيا ونندس فى حى من الأحياء الشعبية حتى ينسانا الناس . . أنا فى حيرة . . فطنينى يا قطيفة ، أريد أن أنام . . » .

وكان من رأى قطيفة أن يشترى أبو الفتوح فدانين أو ثلاثة من الأرض الزراعية وجاموسة وحمارًا ، ويتحول إلى الزراعة ، ويبدأ حياة جديدة ، ورأت أنه من الأفضل أن تكون ملكية الأراضى لطفليهما تجنبًا لما قد يحدث فى المستقبل .

غمغم أبو الفتوح وهو شارد النظرات :

- «تعلمت من السجن الكثير . . كنت نائمًا واستيقظت . . » .

- «ما معنى كلامك؟؟» .

- «ستعرفين كل شىء فى حينه يا قطيفة . . » .

●●●

مفاجأة جديدة فى مشكلة أبو الفتوح الشرقاوى . . ذات يوم لم يظهر أبو الفتوح خارج بيته . . ظل الباب مغلقًا ، حتى الظهر . . لم يسمع الحارس صوتًا لرجل أو امرأة أو طفل ، داخله شك ، أيكونون نائمين أم موتى؟ ليس هناك تفسير ثالث . .

دق الحارس على الباب .

لم يسمع غير الصدى . .

- «افتح يا أبو الفتوح . . افتح الله يخرب بيتك» .

الصمت يمتد فى الداخل.

تجمهر عدد قليل من الجيران والمارة، والعسكرى يحاول أن يفتح الباب عنوة، وقد قدم أحد الخفراء ليساعده فى المهمة.. وثب أحد الشباب فوق الشباك وتسلق حتى بلغ سطح البيت.. وهرول على الدرج الطينى حتى بلغ الساحة.. غرفة الفرن خالية.. والبيت ليس فيه أحد.. صاح من الداخل:

- «لا أحد هنا».

واستفسر أحد الموجودين:

- «أين ذهبوا؟».

رد صوت آخر:

- «لقد اختطفوا أبو الفتوح وعائلته..».

«اختطاف.. اختطاف.. اختطاف..» ترددت الكلمة فى أرجاء القرية، قدم العمدة ومشايخ البلد والخفراء والطلبة والفلاحون.. وعشرات الأسئلة تنطق بها الأفواه الفاغرة، والعيون المبحلقة، وحركات الرؤوس الحائرة..

- «ماذا جرى؟؟».

وفى ساعات قلائل كان رجال الأمن يجوسون خلال الديار بحثًا عن أبو الفتوح، ويحققون مع أقاربه ومعارفه، ويجمعون البيانات عن أصحابه فى القرى والكفور المجاورة على الرغم من

من تأكيده قبل ذلك أنه «مقطوع من شجرة» وليس له عشيرة، لكن هذه الأقوال فى مثل تلك الظروف لا تؤخذ مأخذ الجد.

وتضاربت الأقوال والأفكار كالعادة، كل يحاول أن يفسر اختفاء أبو الفتوح وفقًا لأهوائه، ومصالحه، والحقيقة فى هذا الجو تضيع معالمها دائمًا.. العسكرى المسكين الذى كان قد كلف بحراسة أبو الفتوح قُبض عليه، وتم ترحيله للمركز، ووجهت إليه تهمة التواطؤ مع الخاطفين مقابل رشوة..

قالت أم الطفل شوقى عبد الفتاح.

- «الله يقطعك يا أبو الفتوح.. هذا الملعون أقام الدنيا وأقعدها.. وهو لا يساوى مليمًا..».

قال طفلها شوقى:

- «أصله كذاب يا أمى..».

- «اسكت أنت يا ولد.. كلهم كذابون..».

وشمل التحقيق الذى أجرى حول اختفائه جريدة «الليالى الغراء» خاصة الأستاذ «الزير أبو ليلة» برغم أنه تحت العلاج، كما شمل الشريحى باشا الذى تحسنت حالته وخرج من غرفة الإنعاش، وخضع للتحقيق أيضًا الطالب شعبان عبد اللطيف من جماعة الإخوان المسلمين، واللص المحترف بسيونى المغازى، وجيران أبو الفتوح والعمدة والخفراء..

وأشار حضرة العمدة أثناء التحقيق إلى أهمية أخذ رأى عامل التليفون «الحاج يونس عبده» المحبوس على ذمة القضية الخاصة بالعيب فى الذات الملكية، وذلك لخبرته الطويلة، ومعرفته بشخصية أبو الفتوح.

قال أحد وكلاء النيابة المكلفين بالتحقيق:

- «قضية أبو الفتوح فقاعة هائلة ضخمة من الوهم.. لا تحتاج لغير شكة دبوس، وينتهى كل شىء.. لكن من سيتخذ القرار الشجاع؟؟».

كان الناس الطيبون فى القرية مشفقين على أبو الفتوح الشرقاوى الذى أغرق نفسه فى مستنقع من المشكلات التى لا حصر لها. وكان يقلقهم أن يفقد المسكين حياته فى هذه الفتنة الصاخبة.. هناك من بين أصحاب القرار من لا يهمهم حياة الناس.. إنهم يحرصون فقط على تبرئة أنفسهم من الإهمال والعجز والتقصير.. حتى ولو كان ذلك على حساب حياة الأبرياء..



البراءة

كان الاتجاه لدى غالبية من يعنيهم أمر قضية أبو الفتوح الشرقاوى هو أنه قد خطف، ومن المحتمل ألا يكون الخطف كافيًا، ومن ثم فإن القضاء عليه يحسم الكثير من المشكلات، ويقضى على التورط لدى مختلف الجهات، ومن يكون أبو الفتوح؟؟ مجرد رجل رخيص، قيمته فى ارتباطه بالقضية، ولو لم تكن القضية لما كان له سعر، وانتهاء القضية سواء لصالحه أو لصالح غيره، سيظل يوجد لسه اسمًا وذكرًا، أما موته فهو الذى يسدل ستار النسيان على كل شىء.. وما أبو الفتوح إلا رقم وسط ملايين الفلاحين الذين لا وزن لهم ولا أثر.. هذا ما يعبر عنه عقلاء الناس الواقعيون، كل الأمور الرومانسية فى القضية ستذهب، ولن يبقى منها إلا الحقيقة المرة: التعساء وحدهم يدفعون الثمن حتى يظل الكبار كبارًا، وتبقى أمامهم فرص الحياة مفتوحة حتى النهاية.

●●●

تلفت أبو الفتوح حواليه، كانت الغرفة مضيئة بنور الشمس، والأثاث مرتب نظيف، وأمامه ما يكفيه من الطعام الجيد، وامرأته

إلى جواره تنظر فى دهشة وحيرة دون أن تنطق بكلمة، أما الطفلان فقد كانا نائمين بعد أن بكيا كثيراً . .

وبالباب وقف رجلان، وعلى مقربة منهما ثالث فى الصالة، قال أبو الفتوح :

- «أين أنا؟» .

- «فى منيل الروضة» .

- «اسم أسمعه لأول مرة» .

- «ألم تأت إلى القاهرة من قبل . . » .

- «مصر أم الدنيا . . » .

قال أحد الرجال :

- «أنت فى أمان» .

- «قلبى يحدثنى بذلك . . أنا رجل أمى لا أقرأ . . لكنى أفهم لغة العيون والقلوب» .

- «الحمد لله . . » .

- «طمأننى قبلكم الشيخ شعبان عبد اللطيف . . لم أجرب عليه كذبًا قط . . أشار علىّ بالرحيل . . حسبت ذلك مستحيلا . . فكرت فى الهرب . . لكن عجزت أن أفعل ذلك وحدى . . » .

قال الرجل بثقة :

- «لقد حاولنا تهريبك من السجن خوفًا عليك من الغدر . . » .

- «لماذا تفعلون ذلك من أجلى؟».

- «لوجه الله. . لأنك مظلوم. . ونحن جربنا الظلم. .».

دمعت عينا أبو الفتوح، فمسح الدموع بكمه وقال:

- «أنا أستحق كل ما حدث. . لأنى. . أقصد. . كذاب. .».

- «الله يغفر الذنوب جميعًا. . والإنسان لا يولد كذابًا يا أبو الفتوح. . عصور الظلام تنبت المباءات كلها. .».

- «ربما لا أفهم بعض ما تقول، ولكنى أستحق الضرب. . لم تكن هناك قتيلة. . ولم ألوث يدى بدم أحد، فى أوقات الرعب كنت على استعداد لأن أقول أى كلام. .».

وقدموا إلى أبو الفتوح ورقة لكى يبصم عليها. .

وضع بصمته فى المكان المطلوب وقال:

- «أنا لا أملك أرضًا ولا مالا. .».

كانت الورقة رسالة موجهة من أبو الفتوح الشرقاوى إلى النائب العام، يقول فيها ويؤكد أنه لم يهرب من المحاكمة، أو يخالف روح القانون أو الأوامر الإدارية الصادرة إليه، والدليل على ذلك أنه سوف يحضر إلى المحكمة فى يوم نظر القضية، بشرط أن يتركوا له حرية اختيار محل الإقامة الذى يختاره لنفسه، وأن تصبح حمايته لأمنه مسألة شخصية خاصة بعد ظهور أدلة توحى بأنه يمكن أن يكون ضحية للقوى الحزبية والأمنية المتصارعة، وسيكون هناك شخصيات لها وزنها تضمن تواجد أبو الفتوح عند الطلب للمثول أمام أى جهة

رسمية، كما أنه يرجو من النائب العام ألا يعلن عن وجوده قبل الجلسة، وسوف يضع عنوانه أمام النائب العام، على وعد بأن يظل هذا العنوان سرًا من أسراره، بمعنى أن إفشاءه قد يودى بحياته . .

بعد أن بصم أبو الفوح على الورقة قال:

- «أنا أثق فيكم . . بلّغوا تحياتى للشيخ الجليل . . ».

- «إن قوة مسلحة تحرسك . . ».

- «الحارس هو الله يا سيدنا . . ».

- «الحيطة أوجب فى هذا الزمن . . ».

- «صدقت والله . . ».

- «أتريد شيئًا . . ».

- «أشتهى فقط أن أنام نومًا عميقًا . . ».

أكل بشهية، وأيقظ طفليه ليأكلا ربما لأول مرة فى حياتهما الكفتة والكباب، وشاركت زوجه فى الأكل، وهى تشعر لأول مرة منذ نشوب الأزمة بارتياح داخلى حقيقى لا تشوبه شائبة من الخوف أو الشك، وخالج أبو الفتوح إحساس شامل بأنه لم يعد يملك من أمر نفسه شيئًا، وأن مصيره كله بيد الله، ولعل ذلك هو السبب فى أنه أخذ يستعيد توازنه تمامًا ويبتسم، ويقبل طفليه، ثم يضع ذراعه حول عنق قطيفة، ويرمقها فى ود وحب واشتياق . . قال لها:

- «الأبواب مغلقة من الداخل، والمفاتيح معى . . ها هى . .

والحـراس فى الخـارج . . وكل شىء هنا مـرتب جـمـيل يوحى بالاطمئنان . . تعالى . . » .

ظلت قابعة فى مكانها شاردة تفكر .

همس :

- «فيم تفكرين يا عبيطة» .

- «بيتنا الصغير فى القرية . . » .

- «ليس فيه ما يساوى نصف فرنك . . » .

- «فيه الخير كله . . » .

- «إن مـا يحز فى نفسى يا قطيفة هو ترك الحمـار وحده . . سيموت من الجوع . . » .

- «لن يتركه الجيران بدون أكل . . لكن . . » .

- «ماذا؟؟» .

- «دائمًا أخاف من البندر . . » .

- «نحن فى المحروسة يا هبلاء» .

- «الناس فيها غير الناس فى قريتنا . . » .

- «كلهم خلق الله . . » .

- «وخلق الله ليسوا سواء . . أشعر أنهم بشر غيرنا يا أبو الفتوح . . أصبحت أكره كل من يلبسون البدلة . .

- «لماذا يا قطيفة . . » .

- «كانوا يضربونك دون رحمة . . » .

- «غلطانة ! ! أصحاب البدل يصدرون الأوامر ، والمخبرون يضربون . . وهم يلبسون الجلابيب مثلنا . . ثم هؤلاء الذين أنقذونا وأتوا بنا إلى هذا المكان . . إنهم يلبسون البدل . . اللبس ليس كل شيء . . » .

هزت رأسها قائلة :

- «عندك حق . . » .

توقف عن المضغ برهة ، شرد مثلها وقال :

- «أتدرين ما الذى يؤلمنى؟؟» .

- «ماذا؟؟» .

- «وحشنى الحمار . . والخضار . . والفواكه . . والسوق . . والزبائن ! ! كان صوتى يجلجل فى الشوارع ، وأغنى على بضاعتى وأنا سعيد . . أردد الأغانى نفسها كل يوم . . أشعر كأنى سلطان . . أى والله سلطان يا قطيفة . . مملكة . . كان لكل شيء طعم لذيذ فى فمى . حتى المش والفجل . . إنهما أشهى من هذا الكباب وهذه الكفتة . . أما صحن الفتة وبرام الأرز . . وقطعة اللحم الصغيرة . . يا سلام . . كلى يا امرأة وانسى الهموم . . وغداً تعود أيامنا الحلوة . . » .

قالت فى غضب :

- «ما جربت معك إلا طعم المر والحنظل» .

- «أخص عليك يا قطيفة . أنا أعزك» .

- «أيعجبك ما نحن فيه».

- «قضاء أخف من قضاء يا بنت الناس». . ومضت بضع ليال وأبو الفتوح يألف الجو الجديد شيئًا فشيئًا، وبدا أن صحته قد تحسنت، ووجهه قد ابيض، وزالت حمرة عينيه، وكان يقضى وقته فى الصلاة وذكر الله والدعاء، وأصبح أكثر ثقة فى براءته مما نسب إليه من جرائم لم يرتكبها، وكان الزوار المسؤولون عنه يأتون إليه بكل ما يحتاجه من يوم لآخر، وأصبح مطمئنًا إليهم أشد الاطمئنان، ولم يكن يعلم أن هناك تقريرًا سريًا مفصلا وصل إلى النائب العام قبل نظر القضية بيوم واحد، وفيه تفاصيل كاملة عن المكان الذى تختفى فيه عنايات هانم، والإجراءات المتخذة لمراقبتها حتى لا تفلت مرة أخرى. .

كانت المفاجأة مزدوجة، حينما ظهرت «عنايات هانم» فى اليوم التالى فى غرفة المحاكمة، كما ظهر أبو الفتوح فى القفص، لم يكن أبو الفتوح يعرفها خلافًا لما زعم من قبل، وكان الصحفيون بأضوائهم وأسئلتهم يزحمون المكان، وطالب الأستاذ «الخشاب» أحد المدافعين عن أبو الفتوح الشرقاوى بعقد هذه الجلسة سرية وأودع لدى القضاء مذكرة بالأسباب.

قال القاضى لأبو الفتوح:

- «هل تعرف الهانم؟».

نظر أبو الفتوح طويلا ثم قال:

- «والله العظيم لا أعرفها».

- «هذه عنايات هانم».

فكر لحظة، وتذكر الاسم، ثم مد يديه إليها ضارعًا والدموع تتدفق من عينيه:

- «هل أنا قتلتك يا ست هانم؟».

ضجت القاعة بالضحك، وابتسمت عنايات فى ثقة، وهى تحاول أن تكتم ضحكتها، بينما أبو الفتوح يقسم أيمانًا مغلظة بأنه لم يرها فى حياته، ولم يقتل أحدًا من قبل، لا هى ولا غيرها.

وشرحت السيدة عنايات موقفها بإسهاب، مؤكدة أن لها مطلق الحرية فى أن تتخذ المسكن الذى يروق لها وألا تعلن عنه لأسباب شخصية تخصها وحدها، وأنها لم تقصد من الاختفاء تضليل العدالة، وذكرت أن محاميها قد رفع قضية اليوم فى الصباح مطالبًا لها بالطلاق لأسباب قوية، إذ إنها لا تعيش مع زوجها الشريحى باشا إلا فى حالة انفصال تام جسديًا ومعنويًا، ويمكنها أن تثبت ذلك بالأدلة والبراهين القاطعة، لقد صبرت طويلا آملة أن يشفى من مرضه، ولكن أحد الأطباء أفهمها أن الشفاء ميئوس منه، ولديها شهادة طبية تؤكد ذلك.

قد يكون ذلك هو السبب الرئيسى فيما آلت إليه صحة الشريحى باشا من سوء عندما علم بوقائع الجلسة، ما اقتضى إعادته إلى غرفة الرعاية المكثفة.

وأحضر عامل التليفون الحاج «يونس عبده» من سجن السياسيين الذى أودع فيه بتهمة العيب فى الذات الملكية، للإدلاء بشهادته حول ما جاء فى بعض تقاريره السرية وأقواله السابقة، ودخل القفص بزى

السجن، ففتح له أبو الفتوح ذراعيه واستقبله مرحبًا، وأخذ يقبل وجنتيه، فدفعه الحاج يونس بعيدًا عنه فى غضب وقال:

- «ابعد عنى الله يخرب بيتك.. زوجك شهدت ضدى. ثم من أنت؟؟ أنا متهم سياسى وأعامل فى السجن معاملة حرف ألف.. وأنت سجين عادى تعيش وتعامل معاملة حرف باء..».

لم يغضب أبو الفتوح بل ظل محافظًا على ابتسامته الصادقة وقال:

- «السجن أصبح درجات؟؟ يا سبحان الله!! لا ألف ولا باء ولا تاء.. كله سجن والسلام يا حاج يونس.. يعنى على رأسك ريشة.. الله يسامحك..».

وكم كانت دهشة أبو الفتوح حينما فوجئ بيونس عبده يبصق فى وجهه، وكرد فعل سريع رفع أبو الفتوح يده وهوى بصفعة قوية على وجهه.. وساد الهرج والمرج داخل القفص، وتدخل الحراس، ومن حسن الحظ أن هيئة المحكمة لم تكن قد انعقدت بعد.

جلس يونس يكز على أسنانه فى غضب:

- «لسوف أدفعك الثمن غاليًا يا ابن الشرقاوى..».

- «افعل ما تشاء.. لن يحدث أكثر مما جرى.. والأعمار بيد الله يا حاج يونس.. يا إبليس..».

وصاحت قطيفة من مقاعد الحضور:

- «أرضى يا حرامى.. أرضى يا ضلالى يا غشاش..».

●●●

فى ختام مرافعته قال الأستاذ الخشاب :

- « . . الحمد لله ، فقد أثبتت الوقائع والأدلة المادية الدامغة أنه ليست هناك جريمة قتل ، وبالتالى لا وجود للجريمة التى لفقت للمتهم المسكين أبو الفتوح الشرقاوى . . الجريمة التى انجلت عنها هذه القضية ، والتى لم يصدر عنها حكم حتى الآن هى جريمة اغتيال حقوق الإنسان ، وإهدار حرياته وكرامته وشرفه وأمنه . . إن السلطات الأمنية للأسف الشديد استغلت أوضاع الحرب والأحكام العسكرية للتنفيث عن شذوذها ، وشهوتها فى التسلط والقهر ، وإنفاذ سياسة القطيع . . » .

إن ملايين من أمثال أبو الفتوح الشرقاوى يعانون مثل ما عانى ، وربما أكثر بل لدرجة الموت . . ومن ثم فإن هناك ملايين الجرائم التى ترتكب كل يوم ولا تطالها يد القانون أو العدالة ، لأنها تتم فى ظلام الطوارئ والأحكام العسكرية .

إننى لا أطالب ببراءة أبو الفتوح الشرقاوى وحده ، بل أطالب بتحرير الملايين المضطهدة الفقيرة من سجن الاستعمار الداخلى المتمثل فى سياط العسكر ، ومن سجن الاستعمار الخارجى الذى جثم على أرضنا عشرات السنين ، فأورثنا العديد من العلل والمباءات . . ولا سبيل أمامنا سوى السير على منهج المعصوم محمد ﷺ ، وشريعته الغراء ، والتنادى بالجهاد فى سبيل الله . . والله أكبر . . » .

وضجت القاعة بالتصفيق والتكبير والتهليل، وهتف أبو الفتوح داخل قفصه دون أن يفهم الكثير مما يقال:

- «يحيا العدل.. يحيا العدل».

رمقه يونس عبده داخل القفص، وقال له فى سخرية:

- «اخرس يا حمار...».

صدر الحكم ببراءة أبو الفتوح الشرقاوى.

ومن المصادفة المهمة أن يونس عبده هو الآخر نال البراءة؛ وذلك لتضارب أقوال الشهود، وعدم الدقة فى تطابق عباراتهم، فضلا عن أنه -كما يقول- يرمى «الطعم» أحيانًا ليستدرج أعداء السلطة للبوح بدخائل نفوسهم حسبما درج عليه كمرشد قديم ناجح للبوليس السياسى.

ومات الشريحى باشا فى المستشفى أثر جلطة بالشريان التاجى لم تمهله طويلا.

لم تكترث القرية كثيرًا بمعارك «روميل» ثعلب الصحراء الألمانى الذى تقدم غربًا ليحتل مصر، بل كان الاهتمام الأكبر بعودة أبو الفتوح الشرقاوى، فهو برغم تواضع مكانته الاجتماعية لقى عطفًا من الفلاحين أثمن له من كل كنوز الدنيا، وبعد يومين أو ثلاثة، يسحب حماره من جديد ليبيع الخضراوات والفواكه.. كان صوته يجلجل فى شوارع القرية وحاراتها المتربة، كان صوته رقراقًا

نديًا، وإن شابته مسحة من الحزن. . وكانت مظاهر تعاطف أهل القرية معه متنوعة؛ فهناك من أرسل له كيلة من القمح برغم شحته، أو نصف كيلة من الذرة، أو كمية من الأرز، أو دجاجة، أو فطيرة، والبعض بعث إليه بوجبة ساخنة دسمة . .

قال لقطيفة:

- «عهد علىّ أمام الله ألا أنسى هذا الجميل طول حياتى، وأن أحاول دائمًا أن أسدد هذا الديْن الذى طوقوننى به . .».

قالت وهى تحذره بسبابتها اليمنى:

- «وألا تكذب».

ابتسم فى ألم:

- «وألا أكذب . .».

ولم تهتم القرية كثيرًا بعودة يونس عبده، فقد قدم متعاليًا منتفخ الأوداج، يفخر بسجنه، ويزعم أنه أصبح من رجال السياسة فى الحزب، وأن السجن وسام شرف على صدره. . وأنه. . وأنه. . وأنه. . حتى سئم الناس كلمة «أنا» وعندما يأتى ذكر أبو الفتوح يبدى يونس عبده الاشمئزاز، ويقول فى عنجهية:

- «كان جربوعًا، وسيظل جربوعًا . .».

ooo

الخاتمة

قال أبو الفوح الشرقاوى، وهو يلقى بجسده المنهك على الحصير الجديد:

- «الجميع يعتبروننى كذابًا، وأن الكذب هو الذى جرنى إلى تلك المآسى كلها».

قالت قطيفة:

- «ما فى ذلك شك».

أغمض أبو الفتوح عينيه، وشرد إلى بعيد، تذكر أيام الطفولة.. كانت زوج أبيه القاسية تجيعه وتتركه بلا طعام، وذات مرة سرق قطعة من اللحم فضربته ضربًا مبرحًا، فلم يجد مخرجًا سوى أن يزعم أن القطة هى التى اختطفت قطعة اللحم.. ومرة أخرى القط نفسها شربت اللبن.. كان يجد فى الكذب نجاته من العذاب.. حتى عندما كبر كانوا يطالبونه بأن يبيع بالتسعيرة.. ما معنى التسعيرة؟! إنه يشترى بخمسة قروش ويبيع بستة.. والناس تعرف.. وهذا هو الحق.. فكيف يبيع بأقل مما يشترى؟؟ التسعيرة ليست عدلا. إنها خسارة وظلم.. ثم يقسم للمخبرين والمفتشين الذين يأتون من قبل وزارة التموين أنه يبيع بالتسعيرة، ويعطى كل

مخبر بطيخة أو شمامة أو كيلو من العنب . . ويهمس بينه وبين نفسه فى سخرية «آه يا بلد البطيخ ! !» أما العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفراء فلم يكن أحد منهم يدفع ثمن ما يأخذه . . حتى أهل القرية لا يهتمون به ، ويحتقرونه كلما قال الصدق ، فإذا تفتق ذهنه عن خبر مصنوع ، أو قصة مخترعة ، أو إشاعة كاذبة اهتموا به ، وهرولوا إليه يطلبون منه المزيد . . عالم كله قائم على الكذب والنفاق ، ومن يعزم على الصدق يلاقى الأهوال والمتاعب .

جاءه صوت قطيفة :

– «لماذا سكت يا أبو الفتوح؟» .

– «أنا ضحية» .

– «لا تخدع نفسك» .

– «لست الشيخ المداح : . بل أنا أبو الفتوح» .

– «أنت تحاول أن تبحث لنفسك عن مخرج . .» .

– «كنت أجد فى الكذب نجاتى فى هذا العالم الفاسد» .

قالت قطيفة فى غضب :

– «ما زلت فى ضلالك ، ألا ترى ما جره عليك الكذب فى هذه القضية المشؤومة؟؟» .

– «أعرف . .» .

– «ففيم الجدال» .

- «بالنسبة لى انتهى عهد الكذب مهما كلفنى من ثمن، لكن الدنيا من حولنا تطفح بالكذب.. وستبقى..».

- «كيف؟؟».

- «لا أستطيع أن أبيع بالتسعيرة، ولا يمكننى أن أقول لحضرة العمدة وزبانيته أنتم ظلمة ومنافقون.. ولا أستطيع أن أشى بالعاهرات فى قريتنا؛ لأن ذويهم سوف يقتلوننى إذا قلت الحقيقة، ماذا تفعلين لو كنت مكانى يا قطيفة؟؟».

قالت وهى تزوم:

- «أنا..».

- «دون أن نتعشى..».

- «أجل..».

جلس، وتلفت حواليه، كان الصمت يلفع المكان، والليل يبسط رواقه فى الخارج، ونباح الكلاب يثور من وقت لآخر، وكأنها نظمت نفسها أن تنبح فى وقت واحد، ثم تصمت لبضع دقائق».

قال أبو الفتوح:

- «إن مشروعنا القديم هو الحل».

- «أى مشروع؟؟».

- «أن نترك التجارة، ونحترف الزراعة، إنها عمل شريف بعيد عن المتاعب والأكاذيب.. سنزرع كل شىء الحبوب والخضراوات

والفواكه . . وسنورد للحكومة حصتها فى القمح . . ونبيع القطن بسعر معقول . . وستكون لدينا بقرة وجاموسة ولبن . . ودواجن وبيض . . ».

وفاجأته قطيفة بقولها :

- «فلوسنا حرام . . ».

صدمته الكلمات فهتف :

- «كيف؟؟».

- «إن الذين أعطوك الفلوس مشكوك فى ذمتهم ونواياهم . . ثم إنك لم تقدم شيئًا حقيقيًا لهم مقابل هذه الأموال . . ».

أمسك بكتفها وقال :

- «هذه الفلوس كانت ثمن عذابى ودموعى . . ».

- «الجزاء عند الله يا أبو الفتوح . . ».

هب واقفًا، وقال وهو يلوح بيمناه :

- «أعطيتهم ما طلبوا من كلام . . بعت لهم أسرارًا . . كنت أروى لهم الحقيقة . . لأول مرة فى حياتى سردت ما حدث بالضبط . . دافعوا عنى . . وقرأ الناس قصتى . . ».

- «من قال إن الكلام يباع ويشترى».

- «أنا أقول ذلك يا قطيفة . . والناس جميعًا يفعلون ذلك . . نعم . . المحامى يقول كلامًا . . والمدرس يقول كلامًا . . وكذلك الواعظ . . والشاهد . . والقاضى . . والمؤلفون والوزراء . .

والعمدة ومشايخ البلاد والخفراء . . وكل الذين يكتبون فى الجرائد، ويتكلمون فى الإذاعة . . والمغنون والممثلون . . أكبر سلعة اليوم هى الكلام، ، وهم يكذبون وينافقون . . أنا قلت حقيقة ما حدث لى، وقبضت الثمن . . إنه مال حلال . . أتفهمين يا غبية . . أفيقى . . نحن فى زمن غير الزمن . . » .

وتوقف أبو الفتوح عن الحديث . . لقد سمع هو وزوجته صوتًا باكيًا فى الخارج يقول :

- «لا إله إلا الله . . محمد رسول الله، كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . .

توفى إلى رحمة الله بالأراضى المقدسة، فى المدينة المنورة شيخنا الجليل الشيخ المداح، ودفن بالبقيع . . إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . » .

وقف أبو الفتوح جامدًا بضع لحظات وإلى جواره وقفت قطيفة . .

شحب وجهه وهتف بأعلى صوته :

- «مات الصوت الصادق فى قريتنا . . » .

ثم انفجر باكيًا يشهق . . وتدفقت دموعه . لم يبك على أبيه وأمه كما يبكى الآن .

وجاءه صوت الجموع الهادرة فى الخارج :

«يا دايم ولا دايم غير الله . . » .

وخرج أبو الفتوح وزوجه إلى الشارع فى الظلام. . كانت الأرض مغطاة بالرجال والنساء والأطفال، والقناديل الصغيرة تتماوج أضواؤها الضعيفة فى حزن وأسى، كأنها هى الأخرى تندب وتنوح. .

الشيخ محمود أبو سكين الكفيف أشهر مقرئى القرآن فى بيوت القرية ومقابرها ومآتمها يترنم بصوت مبحوح ببردة الإمام البوصيرى ويقول:

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من أضم

فما لعينيك إن قلت اكففاهمتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم

وكلما قال بيتًا من الشعر يرد الناس من خلفه قائلين:

مولاى صل وسلم دائمًا أبدًا على حبيبك خير الخلق كلهم

من الغريب أن النسوة كن يزغردن، والدموع فى العيون، والرجال يتغنون ويذكرون الله كأنهم فى غيبوبة من الوجد الصادق الذى لا يخالطه شك أو افتعال. . أهو مأتم أم فرح؟؟

امتلأت القرية طوال أيام الأسبوع بالوافدين من القرى المجاورة، والقرى النائية، كانوا يعقدون حلقات الدروس والذكر، ويشيدون بمناقب الشيخ وأياديه البيضاء، وسيرته العطرة، وفكر بعض أهل القرية أن يقيموا للشيخ ضريحًا فى القرية، وتسابقوا فى جمع التبرعات لهذا الغرض، لكن أحد الحجاج الورعين الذى حضر وفاة الشيخ فى المدينة وعاد من الحج متأخرًا قال:

- «أوصانى الشيخ قبل وفاته أن يخلفه فى المشيخة ابنه عبد السلام، كما أوصانى أن أخبركم بأنه سعيد بنومته الأبدية على مقربة من رسول الله . . وحذركم من أن تقيموا له ضريحًا فى القرية . . لأن الحب فى القلوب وليس فى الطين والطوب والقباب والمآذن» .

●●●

قالت قطيفة لأبو الفتوح الشرقاوى :

- «لماذا لا تحلق ذقنك . . » .

- «لأنها سنة عن رسول الله . . » .

- «أتصونها يا أبو الفتوح؟؟» .

- «عهد بينى وبين الله . . حياة جديدة» .

وبدأ الشيخ الجديد عبد السلام ولايته، واتخذ مكان أبيه، وعادت القرية إلى مسيرتها الخالدة .

وسيرة الرجل الطيب، وصورته، تبدوان وجودًا حيًا نابضًا بالحب والسماحة والإيمان والأمل .

●●●

افتتح الإخوان المسلمون شعبة فى القرية، وكان أبو الفتوح الشرقاوى أحد أعضائها، وفرح أيما فرح عندما علم أنهم سيعلمونه القراءة والكتابة ويحفظونه القرآن مع غيره من الشبان الأميين، واعتبر ذلك نعمة كبرى من الله . . ولم يكن ذلك المسكين يعلم أن هذا التحول الكبير فى حياته سوف يكون فى المستقبل بابًا لمتاعب من نوع جديد لا تخطر له على بال . .

الفهرس

●●●